

غارات مصفوفة

❖ اسم العمل نهارق مصفوفة (نصوص أدبية)

❖ الكاتبة: دضحى أحمد فراج

❖ مراجعة لغوية: عاصم عوض

❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنة

❖ رقم الإيداع: 2020 / 19534

❖ الترميم الدولي: 9 - 49 - 6797 - 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية
(هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها
إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)

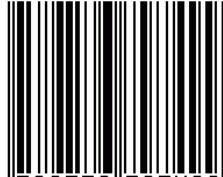
المثقف

للنشر والتوزيع

خالد عدلي

00201002688188

info.mothakf@gmail.com



9 789776 797499 >

مَارِقُ مَصْفُوفَةٌ

(نصوص أدبية)

للكاتبة الدكتورة

ضحى أحمد فراج

الموقف

للنشر والتوزيع



إِهْدَاءٌ

إهداءً إلى قلبي الذي عاشَرَ الدنيا وَقَلَّبَتْه الأيام..
إهداءً إلى قلبي الذي طفحت أحبارُه من الآلام..
إهداءً إلى أناملي التي أزعجت الشاشات أحياناً كثيرة..
وَأَجَلُّ إهداءٍ إلى تلك التي تجرَّعت آلامَ شهورٍ؛ كي تجيء بي إلى هذا العالم
وَتُعطيني فرصة الحديث إليكم، وإلى قرة عيني والدي
إهداءً إلى أمي وأبي.
إهداءً إلى ملوكِ رأونا يوماً أميرات؛
إهداءً لمحبي الرُّمَّان.
إهداءً لِمَن أعطاني شَمْعَتَيْنِ، تلمعانِ يوماً، قائلاً:
إحداهما للطب والأخرى للأدب؛ إهداءً لمُعَلِّمي.
ولا شك أنه إهداءً إليك.. أيها القارئ!





قَدِيمًا قَالُوا:

أحيانًا لا يكفي أن تقلب الصفحة،

ولكن يجب عليك أن تُغَيِّرَ الكتاب!

فاقلب الصفحة، اقلبها!



مقدمة

يحدث أن...

يحدث أن يمتلئ القلبُ بوجدان غير معتاد، ويحدث أن تغرق الروح في أفكار النفس المتلاطمة على شاطئ الحياة، فلا يجد القلب لسائاً ينطق، وتضل النفس عن لفظ حقيقي مُعبر، فيُكسر القلم من منتصفه!

يحدث وقد حدث، أما آن للحدث أن يزول؟! وإن لم يزُل.. سأستعير قلمًا آخرَ وسأكتب.. سأسطر أحاديثٍ لم ينطق بها اللسان يومًا، أحاديث تُسَطَّر لا تُقال، سأفتح لقلبي الأبواب، ولعقلي النوافذ، ولبصري المنافذ، ولبصيرتي على قدر ما آتاها الله من حكمة؛ لعلني أجدد هواءَ فكرٍ لَوَّثته عوادمُ الأيام وقمامات مرور الأعوام.



سأكتب كتابًا مأذونه خبرة الأيام، ذو جلاباب من فكر إنسان،
سأكتب كتابًا عروسه قلبٌ كان لسانه فرقانًا، فلعلَّ به يلمسنا شيء
من الإحسان! فالله الموفق وبه يُستعان.

سأكتب وما أنا بتلك الكاتبة الأدبية، لكني حيثُ ما حييتُ،
وعلمتُ ما علمتُ، ومستني البأساء والضراء ما مستنا، وزُلزلتُ ما
زُلزلتُ، وفرحتُ ما فرحتُ وعرفتُ ما عرفتُ، وأعطيتُ الحياة من
خيراتها ما لا يُنكر من معنى ومادة، لذا؛ آمنتُ -إيمانًا لا يتزعزع-
أننا نكتبُ لِتَبْقَى الفكرة، ونموتُ خالدين.

نكتب؛ كي نذهب لقبورنا واهبين أفضل ما لدينا، كنوع من
الخلود بشكلٍ آخر، وحبًّا في الخلود في آن واحد، خلود الحق في كلمة،
وخلود الخير والسلام في فكرة.

نكتب قبل الرحيل؛ لنسلمَ فكرةً جيدة، أو لنبلِّغَ علمًا نافعًا،
أو لنحقِّقَ هدفًا عميقًا، نكتب للأجيال؛ ليضيفوا حيوات إلى
السنوات.





كما أننا نكتب لأنفسنا قبل أن نكتب للآخرين، ذلك لأنَّ
في الكتابة وضوحًا للمشاعر المختلطة، وظهورًا للأفكار المختبئة.

نكتب لأنَّ في الكتابة حياةً لكل منَّا، حياة شخص وروح فكر،
حياة عالمها الكلمة وموطنها الشعور، كلمة تجعل أحدنا كاتبًا
يكتب، وشعور بلا كلمة يجعل غيرنا كاتبًا لا يكتب، كلنا كُتَّاب
وليس لجميعنا يهوي القلم، كلنا نحمل الفكر أو بعضًا منه، كلنا ذور
شخصية تتبلور في موقف، وتعبر عنها ردود أفعال. أو شخصية
أخرى موقفها من ذاتها ومن مواقف الآخرين، وردود فعلها.. محبرة
يتلاشى جبرها فوق الصفحات.

نكتب كردود أفعال من نوع آخر..

من نوع فاخر.





الفقر.. هو أن تسير السيارة فارغة تماماً إلا من سائقها!
والشارع ممتلئ بالراجلين في وقت القيلولة.. إنه فقرٌ عقلٍ وحكمة.





الفقر عيب

نعم.. الفقر عيب.. عيبٌ كبير، ما لكَ تحملق! وكأني أخطأت!

أعني بذلك فقر الثقافة، والعلم، والأخلاق، أعني بذلك فقر الضمير، والعلم، والعمل، فقر الحلم والأمل... أعني بذلك فقر الأمن والحضارة والفكر الصائب، وافتقار الإنسان لإنسانيته، والعيبُ كل العيب حملتكم هذه، فما لكم تُقدّمون المعنى المادي للفقر على معناه المعنوي؟! وكأن الفقر هو فقط فقر المال والجاه، والحق أن الفقر الحقيقي هو الفقر المعنوي، ومنه الحملقة!

فالفقر هو أن تمتطي الفتاة قطارها ثم لا تلبث أن تجلس حتى تحتضن حقيبتها بكل ما أوتيت من قوة! قبل أن تغط في النوم خشية التلصص.. إنه فقر أمن وأمان!

هو الأندية والقصور والأبراج تُبنى للسياحة الداخلية والخارجية هنا وهناك.. وعلى جانب القصر بعيداً.. وتحت البرج



قريبًا.. وخلف النوادي يسكن أطفال الشوارع، ويعيشون حياةً غير آدمية.. إنه لفقر في الإنسانية.

هو أن تُبتذل الفتاة وتُحترق تحت بند عادات وتقاليد القرية.. لو ارتدت نظارة الشمس؛ خشية نارها في قريتها، وفي ذات الوقت لا تُبتذل الفتاة بحجابها، حجاب رأس لا عنق.. يوم خطبتها! وإن أمسك خطيبها بيدها يرون أنه لا بأس! لا تُبتذل إن خلعت حجابها يوم زفافها أمام الجمع.. أي فقر هذا! إنه لفقر في الدين، وغنى العادة والتقليد.

هو أن يتشاجر الاثنان أي الزوجان (اعتبارًا بما سيكون) على لون سيراميك المنزل المستقبلي، يتشاجران لأن كلاً منهما يريد لونًا غير الآخر، فينفصلان لهذا السبب.. ل و ن سيراميك المنزل!

تُرى ماذا سيفعل مثل هذين بطفل يوم ولادته؟! ربما يسمونه اثنين! ويلبسونه لونين! ويُدخلونه مدرستين! ثم ينفصلان أيضًا! إنه فقر عقل. الفقر هو مجتمع يجعلني أحدث نفسي قائلة :





هل لي أن أرثدي بنظراً يعلوه جاكيت محذق؟! أو أن أستنزف
علبة مكياج تؤذي في نفسي قبل مالي، وفي ديني قبل حالي؛ كي
أبدو ذات علم ومثقفة وبنت «هاي كلاس»؟! هل لي أن أبرز
الحاجبين، أو أكحل العينين، أو أحمر الشفتين، أو أمشط الرمشين،
أو أن يكون لي بشرتان؛ إحداهما خفية، وأخرى مرئية.. ولكنها
اصطناعية، أطل بها حينما أحل بأي دار؟!

أم لي أن أحسن المعاملة حد الابتسام والضحك لكلا الجنسين
كي أنهي أعمالي ومصالحي الحكومية؟! أم لي أن ألهج باللهجة
بالمصرية البحرية عن اللهجة الصعيدية؟!

أم لي... أم لي... إنه لفقر، فقر ثقافة!

هو أن يلعب الحظ لعبته مع مدرس تاريخ.. فيفتح كنز في
بيته.. ليس على آخره، فيعوز رأس طفل بدمه كي يفتح الكنز على
آخره! ثم يخطط لخطف صغير ولذبحه! ولفتح الكنز برأسه المذبوح!



ثم لبيع آثار بلده.. فيفعل! إنه لفقر.. والله ليس بمادي قدر كونه
معنويًا، إنه فقر في الأخلاق والإنسانية!

هو أن يضع الرجل العاطل السكير المدمن يده تحت خديه؛
منتظرًا عودة امرأته من العمل ومعها أكل له ولأولادهما! ثم
يستوقفه مشهد قطع النمل الذاهب والآيب، ثم مشهد مستعمرات
النحل، وتحركات أفراد من شغالة وخادمة وعاملة ومنتجة.. ثم لا
يلبث أن يضع يديه تحت خديه مرة أخرى بعد أن بصق على أفراد
النحل، وألقى بشعلة كبريت على مساكن النمل بعد أن أشعل بها
سيجارتته! أي فقر هذا، وأي شخص!؟

إنه فقر في العمل، ثم فقر في كل شيء!

الفقر هو الجهل.. تراه رجلاً إن قام -وهو دائماً قائم- «لا يقوم
إلا كالذي يتخبطه الشيطان من المس» وما هو بمس، وما هو
بشيطان، ولكنه الفقر.. فقر في العلم.



فتالله لو كان الجهل رجلاً لقتلته على حال سكرته، ثم لقطعته
إربًا إربًا، ثم لأبيت دفنه؛ كي لا ينجس التربة، فيعكر صفو
الأموات تحت التراب، ولا تمتنعُ عن حرقه؛ كي لا يلوث هواء
الأحياء، ثم لأبيتُ رميه بعيدًا كي لا يبقى.. كشيء.. مرمي.

فلو وقعت عيناى على إرب منهم لرأتاه رجلاً آخر! ثم لقطعت
إربه آرابًا، وبعد كل هذا أستخسر فيه الأرض والنار!

ومع ذلك الإباء.. ومع ذلك الامتناع، تنتشر ذراته في الهواء على
مضض، ولا يمكن أن تُزال قمامته إلا بمكانس العلم.

هو أن يختار الأهل للفتاة زوجًا حسب مهنته، وماله، لا لخلقته،
ودينه؛ ناسين أو حتى جاهلين بما ينص عليه الدين «إذا أتاكم من
ترضون دينه وخلقته».. دينه وخلقته.. لا مهنته وماله! إنه فقر فقه
وعقيدة.

الفقر هو أن تسير السيارة فارغة تمامًا إلا من سائقها! والشارع
ممتلئ بالراجلين في وقت القيلولة.. إنه فقر عقل وحكمة.



هو أن تشاهد الفيلم الأجنبي فتشاهد معه خلفية من الثقافة؛ تراها في شكل كتاب يقرؤه البطل قبل ذهابه للنوم، وكتب أخرى في كل مكان في المنزل، ويوم أن يُهدي حبيبته، يهديها كتابًا.

وترى العلم والثقافة الصحية وغير الصحية في حديث الصغار والكبار، ثم لا تلبث أن تُنهي الفيلم الأجنبي، لتبدأ في آخر عربي؛ فلا تشاهد إلا حروبًا بين الأبطال، يلقون فيها بألفاظ تؤذي الآذان.. ثم أفرحًا تشاهد فيها الصغار يتراقصون بمطواة أو سكين، وأهلهم فرحون لرؤيتهم يتراقصون على مهرجانات شعبية شتى! والحق أنهم لا يتراقصون، بل يتحولون لقرود لبضعة دقائق، ويشعرون بعدها كأنما وضعوا أساس علم الرقص بهذه الحركات! ولا ترى في الفيلم غلاف كتاب، ولا تسمع فيه كلمة تدل على العلم والثقافة والتحضر.. إنه فقر في الثقافة وفقر في الحضارة .

الفقر هو كذا... وكذا... وكذا... إلى أن تقوم الساعة. ومن ثم نرى أن الفقر المادي هو فقط فقر مال، أما الفقر المعنوي هو الفقر





الأكبر إن لم يكن الأوحد.. ذلك بأن الفقر المعنوي فقر جملة، أي
أن الفقر المعنوي عادة ما يجلب معه فقرًا معنويًا آخر... وآخر!
فلا تجد عاطلاً عالمًا، والرجل السكير غالبًا ما يكون جاهلاً،
على غير دين، على غير خلق، على غير ثقافة، وحتى على غير مال!
ولا تجد أبدًا ذا خلق ودين على غير إنسانية، هكذا يكون فقر
المال واحد، وفقر المعنى فقر جملة.





لذا سأشعل مصابيح العالم كافة؛ حتى يتبدد الظلام، فإن أبصرتُ
سأبصر الظلام، وإن أبصرتُ سأبصر الحقيقة، المهم أن أبصر...





رسالة إلى بُنيّتي

-بُنيّتي التي لم تأتِ بعد،

انظري يا بُنيّتي، لقد عشتُ كثيرًا على هذا الكوكب، مكثتُ
حتى اليوم ما يقارب عشرين عامًا وزيديهم واحدًا، ذلك بتعدادهم
الأرضي، وزيديهم سبعة أشهر.. ذلك بالعمر الرَّحيميّ!

بُتُّ يا بُنيّتي في ظُلُمات عالمٍ مخبول، يَوْمَ أن أبصرت عيناي
أبصرتُ خيالًا.. خيالًا من أحلام جميلة رسمتها لي روجي الصغيرة،
وساندتها روحٌ كبيرة، روحٌ جعلتها تعيش الحلم بعينٍ عمياء،
أعماها الحب الذي تلا أحداث الخيال فكان خيالًا! وما كان الخيال
خيالًا بعد أن بصّرت به الأنظار، خُلعت الأفتعة، أو سقط القناع،
سقط عن مظهرٍ في واقعه.. واقع مؤلم حرّاق!

واقعٌ خياليّ يا بنيّتي، يهبونك فيه حبًّا وسلامًا وأمانًا، ويملؤون
به قلبك، وكأن شمعَة صغيرة يا صغيرتي أشعلها أحدهم في قلبك،
تُنير حياتك، وتملؤك سلامًا من الداخل، حتى لا ترين إلّا إيّاه.. إلّا



إيّاها في ظلام حالك! وفجأة تُشعل المصاييح، مصاييح الحكمة،
مصاييح القدر، وشمس تُعيد إليك ناظريك.. لسانُ حالك يقول
حينها: ليّتها لم تُعده، أو أحسنت فأعادته!

ذلك بأني أبصرتُ الظلام حينها بقلبي الصغير، ذلك الذي
اعتاد ضياء الشمع، فأثي له بمصاييح تُريه ظلام العالم أجمع؟ ظلام
القلب وظلام الروح، ظلام الحب وحب الظلام! وما اعتاد القلب
مثل هذا الحدث أبدًا.. والحق كل الحق أن كان لا بُدّ له منه حتى
تتفتّح عيناه وإن كانتا على الظلام .

إن رؤية الظلام والعمى سواء! ولكن عساه أن يضيء يوماً فلا
أرى رؤية الكفيف؛ كفيف عن أحداث دنياه، كفيف عن قلوب
وعن خفاياها ونواياها، كفيف عن قلبي الصغير! هذا ما حدث.

أما عن الشمعة يا بنيّتي، فلا بأس ولا تشغلي بها أمرك، فقد
جاء أحدهم من الخلف وأطفأها.. بنفخة واحدة! ولن أشعلها مرة





أخرى، فهي دائماً ما تُذكّرني بقلبي الصغير ودائماً ما يُذكرني القلبُ
بظلمة غير مرئية.. وأنا أحب أن أرى، ومَنْ مِنَّا يحب العَمَى!

لِذَا؛ سأشعل مصابيح العالم كافة حتى يتبدد الظلام، فإن
أبصرتُ سأبصرُ الظلام وإن أبصرتُ سأبصر الحقيقة، المهم أن أبصر.
افعلوها يا بنيّتي حتى لا تنخدعي! هذه رسالة مِنِّي إليكِ، فإن أتيتِ
فخيراً، وإن لم تأتِ -على أني سوف أفتقدك كثيراً- فهَبِّبها لأننادك
الذين لن تأتي معهم، هَبِّبها -إذَا- للجميع .

رسالةٌ مِن قلبي الصغير، مِن ذلك الصغير قبل أن يصبح -يوماً
ما- عجوزاً بفعل الظلام.

و شاء القدر أن أشعل المصابيح، مصابيح العالم، فأبصر، ولقد
أبصرتُ نوراً وَهَاجاً، أتى لي بِقُرّةِ عيني، وها هي تحادثني وأحادثها،
وهي بنت خمس سنوات..

-أَلَا أُصدِّقُ كل ما يُقال يا أمّاه؟!



-نعم يا بُنيّتي، تعلمتُ أَلَّا أَصَدِّقُ كلَّ ما يُقال، ومع ذلك ما
زلت أنا -أمك- بِسَجِيَّتِهَا، وبعِضٍ مِن سذاجتِهَا، أَصَدِّقُ. حتى بعد
أنْ أُنجِبْتُكِ، حاولتُ أَلَّا أَصَدِّقُ، ويَأْتِي القلبُ إِلاَّ التصديق.

-إِذَا عَلِيٌّ أَلَّا أَصَدِّقُ أَي مَصْدَرِ قَوْلِ. أَعَلِيٌّ أَلَّا أَصَدِّقُ التَّارِيخُ؟
وَأَلَّا أَصَدِّقُ تَوَالِي الحُرُوبِ؟! وَأَلَّا أَصَدِّقُ أَحْدَاثِهَا؟! وَأَلَّا أَصَدِّقُ مَجْرَدِ
كِتَابِ، فَمَنْ أَدْرَانِي بِحَقِيقَتِهَا؟!

-بُنيّتي، تعلمتُ أَلَّا أَصَدِّقُ بعض ما سمعتُ وليس كلِّه، إن كنا
لا نثق بالكتاب ولا بمؤرخه، إن كنا لا نثق بالدين ولا بكتابه، إن
كنا لا نثق بالخير والخلق الحميد الذي أفاضت به الأديان، وتحلى به
الرسول وصحابته، إن كنا لا نثق بكل هذا، إن كنا لا نثق بالخير
فبماذا نثق إِذَا؟!

-أَمَّاه، لقد التبس عليَّ الأمر.. أهذا يَعْنِي أن أَصَدِّقُ الخيرَ مَهْمَا
كان؟! وَأَنْ أَكْذِبُ الشرَّ أَيْنَمَا كان؟!



-لا يا قُرَّةَ العين، لو كان عليك التفكير بنهج ما.. فلتفكري
بنقيض ما ذكرته، لا أود أن أكون تلك الأم التي تزرع في ابنتها
وقرة عينها سوء العالم، وكأنها ما رأت إلهًا، أود منك حكمة، ولا
أريدك أن تعيشي بسوء الظن بل أحسنه، أحسنه وإن لم
تصدقيه... والآن، ما بال تعبيرات وجهك تحمل همومًا؟! لا عليك.

-ما زلتُ بِحَيْرَةٍ! متى أصدق؟ ومتى لا أصدِّق؟ أشعر وكأنني
بمحااجة إلى جهاز كشف الكذب، أو كشف الشائعات، والقول غير
الموثوق، أو لربما أحتاج جهازًا آخَرَ لكشف الحقيقة يومًا ما، لكثرة
نقائضها.

-لا عليك يا قرة العين، ليس الأمر بهذا التعقيد، إنه سهل
ممتنع، وبعد التنبيه عليه والشعور بوجوده لا بد من أن يصبح ذلك
السهل غير الممتنع.

-أمَاه.. ماذا لو أتخذ من قلبي جهازًا فأصدِّق ما يصدِّقه، وأنكر
ما ينفيه؟! ما ينفيه؟!!



-وماذا لو صدَّق القلبُ كلَّ خيرٍ وأنكرَ كلَّ شرٍّ، وبِعَضُ الخَيْرِ
لا يُصدَّقُ وكلُّ الشرِّ لا يُنكَرُ..

-إِذَا.. إنها لمعضلة!

-كانت هكذا بالنسبة لي و...

-إِذَا.. فقد زالت!

-وما زالت.. إلَّا إنها استحالت لمجرد مشكلة ذات أطلال
ببعض من الحكمة .

-الحكمة؟ إِذَا.. فهي الجهاز المقصود، أتَّى لي بها أماء!

-بالحياة يا بنيتي، أعطاك الله إيَّاهَا، فَمَنْ أُوتِيَ إيَّاهَا قد أُوتِيَ
خيرًا كثيرًا، اللَّهُمَّ خيرًا كثيرًا لصغيرتي.

إلى بنيتي وهي عروس بنت العشرين.

بنيتي.. ستظلين بنيتي بإضافة الياء الصغيرة مهما كَبُرَتْ،
ستظلين جميلتي وأميرتي ومهد شيخوختي بعد أن كنتِ قرة شبابي





يومًا ما، ستظلين حُلْمِي السابق، وحُلْمِي الباقي، وحُلْمِي ما دمْتُ
أَحْلُمُ، وأنتِ تعرفينَ أني لو لم أَحْلُم أمت.

غَدًا ليلة زفافك وستركيني إلى بيت لا تعرفينه، وإلى بيت
تسكنينه أول مرة، بيت هو بيتك، فاسكنيه بالمعروف وعاملي
قاطنيه بكل معروف، ستركيني غَدًا ولكنك ستأخذين معكِ كل
جميل وعظيم، خذي كلماتي معك، وأظهرها لأهل بيتك، أظهري
أملك فيكِ..أظهري أملك الشيخة التي شَيَّخها الزمان عن شبابها ولم
يُشَيِّخها عن قول كلمات لبُنيتها تعيش بهن حياة كريمة جليلة..
أظهريني في نفسك بتعاليمي بل بتعاليم دينك التي أنشأتكِ عليها.

وإن أخذني العمر الطويل إلى ما بعده، ولم تجديني يومًا،
فستجدين كتبًا وصحفًا وفقهًا وشريعةً، أنا لم أعطيك السمكة
فقط؛ بل علمتك الصيد أيتها الصغيرة الكبيرة، وإن كنت أُعطيكِ
إياها اليوم؛ فلأنه يوم زفافك، أعطيك السمكة وأعلم أنك تعلمين
الصيد، وهذا تشجيعٌ لك، تشجيع لأن يمتلئ قلبك بالسلام والرحمة
والمودة، ولأن تطيعي الزوج؛ ليس فقط لأنك مسالمة رحيمة ودودة؛



بل لأنك صيادة ماهرة، صيادة لتعاليم دين.. قال رسول الله - ﷺ -
في سنته:

-«إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها،
وأطاعت زوجها؛ قيلَ لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئتِ»
رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني .

أعلم أنك عالمة عاملة، تحبين بيتك وتحبين عملك، وحاولي قدر
ما شئت التوفيق بين عمل البيت للزوج، وعمل الخارج للمجتمع،
فإن لم تستطعي.. فاحفظي عمل بيتك أولاً.. ولا تكوني كمن
يعتمر ويحج بيت الله وأهل بيته يتضورون جوعاً!

تعلمين بالطبع قصة ابنتي شعيب -عليه السلام- وسأذكرك
بها، فهو يوم يستحق التذكرة فيه، فدائماً ما تنفع الذكرى المؤمن.

بُنيتي، سأذكرك بمكان المرأة الحق، أتذكرين ابنتي شعيب إذ
تقولان لموسى عليه السلام :





«قالتا لا نسقي حتى يصدرَ الرعاءُ وأبونا شيخٌ كبيرٌ». سورة

القصص (٢٣)

قد ذَكَرَا حجةَ لعملهما هو أنَّ أباهما شيخٌ كبيرٌ، وما إن وجدت
إحدهما موسى قالت لأبيها : «يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» سورة القصص
(٢٦) ولم تستحلَّ الخروجَ والعملَ خارجَ المنزلِ.. أرايتِ؟! !

أعلم أن الزمن غير الزمن، ولكنَّ المرأةَ كائنٌ لطيفٌ ضعيفٌ،
والرجل رجلٌ جهوري قوي.. مهما طال الزمن، و(كُلُّ مخلوقٍ مُيسَّرٌ
لِمَا خُلِقَ لَهُ).. سايري الزمان على وفاق بينكما، ولكن لا تنسي
الحق والعدل، كوني على حق دائماً، كوني مسلمةً يا بنيتي، كوني
مسلمة في كل لحظة في بيتك .

اللَّهُمَّ بارك في العمر كي أرى أحفادي الصغار، وبعد أن أراهم
وألاعبهم وأحدثهم وأحكي لهم الحواديت.. سأظل أناديك ببنتي،
اذهبي فليحفظك الله.. يا بُنَيَّتِي !





لقد اشتقتُ لقلوبهم الطيبة، ونواياهم الحميدة، اشتياقي لليلة شتاء
باردة.. تفرح فيها الجدة بجمع أحفادها حول موقد النار، تبصر النار
بعينها قائلة لهم: لا رحمكم الله منها دنيا ولا آخرة!





عاهات وتقاليد

أتذكر الأمس جيداً، أما قبله فلا أذكر منه شيئاً، كل ما قبله!
ربما لأنه أمس مميز، أو ربما لأنه أمس.. وليس قبل! غداً سيتضح
الأمر.. غداً، سيكون اليوم أمس، والأمس قبل.. فلننتظر ولنر إن
كنتُ أذكره لتمييزه أم لقربه!

أما عن قبل أمس الأمس فأنا لا أذكره أيضاً.. ذلك بأني لم
أحضره أصلاً.

لكني تمنيت كل التمني لو ولدت في ما قبل أمس الأمس..
وكبرتُ في أيام الزمن الجميل.. أيام «سعيدة يا هانم» و«بونسوار»، أيام
«تفضلي يا مادموازيل»، أيام «ابعث لي هذا التلغراف»، وأيام «أكتب
إليك رسالتي هذه»، وهو يكتب على ورق لا على شاشة، ويكتب
بالقلم أو بالمحبرة لا بأنامله! أيام حضرة «الباش كاتب»، أيام
«الترومباي».



زمن كانت فيه الأنثى أنثى، والرجل رجلاً، كانت أنثى بردائها
 بفستانها القصير، أو الطويل المهدم، والذي يثبي على كل حال بروح
 الأنثى، والذي انقرض حديثاً حتى أصبح زياً أنثوياً مُسترجلاً.. تراها
 خلف كاميرا السبعينات وعلى شاشات الأبيض والأسود من التلفاز
 بفستانها وبكعبها الأنثوي الذي لطالما جرت به وتسابقت مع
 أرض الطرقات، ولجرت معها كاميرا السبعينات، تُرينا ربما يتمايل
 بل يتسارع، وكلما تسارع ازداد جمالاً.. وتصبح هي، ويصبح كعب
 حذاءها قضية رأي عام في الإنتاج الفني السينمائي خلال دقائق
 كاملة. حقاً، كنتُ أتمنى.. ولكن لا بأس، فأنا اليوم أتذكر
 الأجداد.. أجدادي، الذين يقترب زمانهم من زمان «سعيدة يا
 هانم».

إني أشتاق لجمع الأجداد كثيراً، لقد اشتقتُ لقلوبهم الطيبة،
 ونواياهم الحميدة اشتياقي لليلة شتاء باردة.. تفرح فيها الجدة بجمع
 أحفادها حول موقد النار، تبصر النار بعينيها قائلة لهم: لا
 حرمكم الله منها دنيا ولا آخرة!





نوايا طيبة، وإن خاب التعبير وإن خاب اللفظ، لا يخيب المعنى
ولا تذهب النية هباءً، نية تمني الدفاء والأمان طوال حياتهم،
وحتى بعد موتهم. ولقد رأيتُ من الأجداد ما رأيت، واعتقدت من
عقائدهم ما اعتقدت.. عشتُ من الأيام معهم ما حييت بل ما هم
حيوا.. وسمعتُ من الأقاويل ما أنصت، وأخذتني الحياةُ بأفكارها
معهم ما انسجمتُ، ورأيتُ من العاهة والتقليد ما بقيت.. لكنني
حتى الحين لست أدري ما علاقة «الحازوقة» بالفرع..

«الحازوقة» هي ذلك الصوت الذي تصدره على غير إرادة منك .

قالت لي خالتي يوماً، عندما سمعت «حازوقتي» تعوق حديثي،
وأحياناً تعوق العمل:

-أنتي لك تسرقين البيض من فلان؟! إنه من خيرة الجيران، أهذا
ما أنشأناك عليه يا بنت الأخت؟! قالتها، وبكل ثقة !

أي جيران؟! وأي بيض؟! ومتى.. وكيف.. ولماذا؟ أنا حقاً لم أفعل
شيئاً، أقسم أنني لم أسرق شيئاً.. ولم أرَ بيضاً! ماذا حدث؟! هل





ذهبت «حازوقتي»؟ أم أنني أرسلتها بعيدًا حتى أستطيع الدفاع عن نفسي؟!!

فهمت الحالة، وقالت :

-بالطبع إن سرق الجميع، لن تفعلها أنتِ.. أنا أعرفك جيدًا، ولكن فقط أردت أن تفزعي.

-لماذا يا خالة؟!!

-الحازوقة تذهب بشرب بعض من الماء حينًا، أو بفرع أحايين كثيرة، يا بنت الأخت.

هذا هو الفرع، وهذا هو العلاج كما يرون، والعجب كل العجب أنك حقا لا تسمعُ للشهقة صوتًا بعدها!

لست أدري أهو الفرع المُعالج؟! أم أنه صوت الخالة الضخم أحمدها خمدًا؟! أم أنها الصدفة؟ ويتكرر الموقف ويتكرر البيض، في كل مرة يذكرون سرقة البيض.. وكأن لا شيء بالدار ليُسرق إلا البيض! أبيت جيران هو يا خالة أم دار دجاج؟! ليس فقط الدجاج



من نال شرف التقليد.. بل العصفور كذلك، يقضي حاجته.. حينها يدخل تاريخ الخرافة.. فلو أسقط عليك عصفور برازه يوماً ما، عن قصد، أو عن غير قصد، كل عصفور وضميره، فهنيئاً لك! لقد قالوا إنه لبراز وهو للحظّ جالب، أو أنك ستحظى قريباً بثياب جديدة، وحتى الآن لم أستطع فهم: كيف لبراز أن يجلب سعداً وهناءً؟! ترى كيف؟! لقد أسقطوا عليّ برازهم مراراً وتكراراً، ولم أحظّ حتى اليوم بثياب جديدة، دائماً ما كانت الثياب الجديدة تحظى بي. ويوما ما كانت أختي تَحِيطُ ثيابها، وما إن انعقد حبل الخيط والتف كثيراً، وزاغ مساره بعيداً عن سم الخياط، قالت لها جدتي :

-إن أحداً ما يتحدث عنك الآن، ويطعن قولاً فيك! هكذا يعتقدون أن أحداً ما يغتابها؛ ما إن انعقد حبل الخيط بين يديها !

ثم ماذا يا جدة؟ يا جدتي الكل يهمز ويلمز في قريتك، ولو أن ما تقولينه حقٌّ لما خاط أحد ثيابه أبداً، حتى مصانع الملابس يغتاب بعضها بعضاً، فلو أن الموضوع كذلك ما أنتج مصنع واحد ملبساً واحداً.. ولأصبحنا حفاةً، عراة العاهة والتقليد .





ردت قائلة: أتعلمين متى يكف الناس عن اغتياب بعضهم

بعضًا؟

قلت: لا.

قالت: بالليل.. ذلك بأن خياطة الثوب بالليل غير مستحب،
يكف الجميع عن خياطة الثياب فلا تنعقد الخيوط، وتذهب
الغيبة.

يا للجدّة! ما كنت أعلم أنها فيلسوفة زمانها إلا اليوم! وهي لا
تكف عن نصح الإخوة وخاصة تلك التي تزوجت ولم تنجب بعد،
تنصحها بالذهاب إلى المقبرة، وتطلب لها بعض الحجارة من أرض
الحجاز كي تخط عليها ومن ثم تحمل وتنجب! وهي لا تكف عن
تذكير والدي بوضع قبقاب مُعلّق على الباب، منعا للعين والحسد،
وتحمل هموم الدنيا فوق طاقتها لو سمعت غرابًا ينقع بجوار المنزل..
تقول:





-هذا الأسود يجلب معه التشاؤم، ويعني أنّ أحدًا من البيت سيذهب قريبًا إلى ربه.

لقد سمعتُ كثيرًا نعيق الغراب، في كل مرة كنتُ أتذكر قصته مع أبناء آدم، وتذكرني هي بقصة التشاؤم، إن له أعوامًا ينعق، ولم يذهب أحد إلى ربه، ولا حتى قَطُّ الدار.

أما يا صديقي إن زُرتَ أهل بيت يومًا، وكان لأهل البيت من البنات خَلَف؛ نصيحة ذهبية، إن قَدَّموا لك شيئًا للضيافة يُشْرَب - وسيقدمون بالطبع - إياك أن تترك مما قَدَّموه شيئًا بالكوب!

أعلمُ أنك رجلٌ ثقيلٌ ذو «إتيكيت» وتريد أن تُبقي ولو جزءًا بسيطًا من المشروب في كوبه ..

ولكن إن تفعل ينهروك قائلين:

- أئني لك ألا تنهيه؟! هَلَّا أكملتَه يا رجل، ولا تُبقي شيئًا فيه..
أما تخشى على بناتنا البور؟! اقترب قليلاً يا صديقي، وأعطني أذنك، ذلك بأنهم يعتقدون أن قطرات المشروب الباقية تُبِير بناتهم.. أي





تُبقِيهِنَّ بلا زواج، فإن حدث البُور يا صديقي مع محض الصدفة..
ستكون أنت المُبِير، وقد تكون الزوج رَغْمًا عنك.. إصلاحًا لِمَا
فعلت.. اللَّهُمَّ بلغت.. اللَّهُمَّ فاشهد.

أَمَّا إن كان المشروب قهوة، ولسبب ما قد مآل وانسكب.. قالوا :

-ويحك، إنه لَحَيْر (دلِق القهوة خير).

وأخيرًا وليس آخرًا ..

لا تخبر أحدهم برقة العين حتى وإن وصل اختلاج العين
للحاجب، فإن فعلتَ فزِعُوا، وقالوا: ما الاختلاج إلا لأمرٍ خطير
جالِب. قالوا مصيبة! وأنى لمصيبة تأتي برقة عين؟

وما للعين بالمصائب؟! وكيف تُعقل بعلاقة، أعندَ العين علم

غيبٍ.. أم أنها الخرافة !





فما الاهتمام إلا قدر، وما الاهتمام إلا وليد، وليد تزواج الأنفس،
وتلاقي الأرواح؛ لتنجب مولودها الثاني من الحب.



قبل أن تقع في الجُب

لا يخلو مؤلفٌ أو عملٌ فنيٌّ من شعور الحب بين أبطاله أو حتى شعور الكره؛ فإما أن ينشأ الحب وتحدث المعركة من أجله ساعة يولد الكره بين المحاربين، وإما أن يكون الكره بداية .. وينتهي العمل الفني الأدبي بمقولة «لا محبة إلا بعد عداوة».

وكأنَّ الحب والكره انعكاس للحياة والموت، أو كأنهما على الأرض ذكر وأنثى، ولكنَّ لفظي الحب والكره مُدْكَرَان.. فيا ليت الحب كان مؤنثًا!

ولأنَّ الحب شعور.. ولأنَّ الشعور يلزم الإنسان كملازمته رثتيه، يلزمه ما دام قلبه ينبض، تجده في كل مكان، في كل زمان، نعم في كل مكان حيث لا تتوقع وجوده، وإن كان على غير قصد.

ألم تروني وأنا صغيرة الأعوام لم أبلغ التاسعة من عمري.. أشارك في سباق شريف حينما طُلب مِنَّا بحثٌ عن موضوع علمي، وقد أخبرونا بأن العمل الأفضل سينال جائزة! تَهَلَّلْتُ أساريري





مجرد أن عرفت.. وسار الدم في عروقي سير الحبر في المحبرة! وهرعت
إلى المكتبة في مدرستي الابتدائية، ومعى أوراقى وأقلامي، ومن ثمَّ
بدأتُ حتى انتهيت، وجمّلت الورقة بكل ما كنت أعرفه من أشكال
الزينة؛ حتى أصبحت كامرأةٍ ليلة زفافها!

وفي أوج سعادتي طبّقت الأوراق المكتوبة، التي تحمل في داخلها
علمًا قيمًا، والمزينة أيما زينة، وهدّجتُ إلى الأستاذ «ربيع» كي أسلمه
بجئي.

الأستاذ «ربيع» هو أخصائي اجتماعي، ومسئول عن استلام
الأبحاث مِننا..

وكانت المفاجأة!

_ ما هذا يا بُنيّتي؟ قالها في عجب وسخرية، ويبدو أن أسنانه
البيضاء بدأت في الظهور.

_ بجئي يا أستاذ.



_مد إصبعه على رسومات قد زينتُ بها الورقة قائلاً: ولم هذا؟
أتحبين كل هؤلاء؟

_كيف يا أستاذ؟ سألتُه وأنا لا أفهم ما يرمي إليه أستاذي البالغ
اليافع.

_بانت أسنانه هذه المرة على آخرها! ولازم ظهورها ضحكة غير
بريئة، أقصر من طرف عيني كأنها حرف هاء فقط!

الحق أنني عجبت وعمدت إلى معرفة ما كان يقصده الأستاذ..
وفي آخر اليوم الدراسي توجب علينا الذهاب من المدرسة، وفي
طريقي للمنزل كنت أنظر لرسومات المنازل، على جدرانها من حولي،
والمزينة لها، وأقول لنفسي حينها: تُرى.. لم تعجب أستاذي منها؟!
أليست رسومات عادية تزين الورقة كما تزين الجدران؟! ثم وقع
بصري على رسمة منهم، ولكن هذه الرسمة كانت تحمل حرفين غير
الحروف التي وضعتها بالورقة، ثم رحْتُ أفكّر قليلاً حتى اكتشفتُ
أنهما حرفان لصاحب المنزل وزوجته! فقد تزوجاً قريباً وهنا



يرسمون كثيرًا من هذه الأشكال الفنية على جدران منازل الزوجين
الجدد.. رسمة على شكل قلب يخرج منه سهمان، سهم من كل جانب،
وكل سهم يُشير لحرف يدل على اسم صاحبه.

يا الله! يا ربي! ما كنت أعلم أن الموضوع هكذا حسبتها شكلاً
من أشكال الزينة، فقد رسمتُ على أوراقٍ قلوبًا كثيرة، وبأحرف
مختلفة، قلوبًا تحوي حرفي وأحرف أخرى كثيرة، وقلوبًا أخرى
تحمل حروفًا أخرى لا شأن لها باسمي!

لقد عرفت الآن وفهمت ما يقصده الأستاذ بقوله؛ كل هؤلاء يا
بنتي؟ ركزي مع واحد!

حقا تمنيتُ لو انشقت أرضي وابتلعتني قبل أن يقال لي مثل
هذا القول. يا لسذجاتي وأنا بنت التاسعة. الغريب في الأمر أن
أستاذي قد استلم بحفي، والأغرب أنه لم يَفْزُر رغم كل هذا الحب
وإن كان على غير قصد... سأمهم الله!



وها أنا اليوم أبحث عن معناه الحقيقي، وعن أسسه الصحيحة معكم.

-ألحب أسس؟

-نعم.. حب الأب، والأم، والأخت، والأخ، حب الصديق، وحب الحبيب، لجميعهم أسس كي يصحوا، وأكبرها أسسًا حب الحبيب لأنه حب يحافظ على النوع ويُبقيه.

الحب سلم كبير طويل طول حياة الفرد، تبدأ درجته بجنان الأم، ورفق الأب، ومن ثمّ طفل جميل محبوب منذ ولادته، وها هو يصعد السلم شيئًا فشيئًا فيعرف الله حق المعرفة.. ويعرف دينه فيعتقد ويؤمن أيما إيمان، وهذا هو الحب الأعظم، هنا يصعد السلم صعدة واحدة وهنا يضع الأسوار لسلمه حيث لا عاصفة تهزه، ولا قاصفة، ولا حتى صرصر عاتية!



ثم يأتي الحب الجميل جزاءً من الله له.. فيعلو بسلمه مطمئنًا
واثقًا ليُطل بنظره على أرض الحبيب الخضراء بأزهارها المبهجة وهنا
يكتمل بدر الحب المنير.

فما إن يأتي الحبيب إلى أرضه تجلس إليه.. وما يدريك بالأجواء
وما أدراك بالجلوس؟! فالجلوس إلى الحبيب كالجلوس إلى شجرة
طيبة مباركة ظليلة، في يوم شديد الحرارة، وقت ظهرته.. حيث
القرب المحبوب والحب القريب، تستمع إلى كلماته وكأنها أنغام
بلا بل الدوح بل أجمل، لا ترى عينك سواه، وتتمنى لو أن الله خلق
لك عيونًا لا تُبصر في دنياها سوى ظلام دامس.. أناره حبيب
القلب والروح فلا ترى في الظلام سوى نوره.

ثم لا يلبث أن يغيب الخوف غيبته الأبدية، ليستحيل الحال إلى
أمن محبوب وحب آمن؛ فلا تكل مجاورته ولا تمل، وتعلو صوت
دقات القلوب فتغلب دقات ساعة زمانه، فتمر الساعات وكأن
ماردًا يلاحقها! فتتمنى لو تمسك بيدك عقارب الساعة، وتلصقها
بأرضها لصقًا، فيتوقف الزمن على هذه الحال الجميلة، حال لا ترى



فيها إلا الحبيب. وإن دارت العقارب في مسارها على مضض، فتركت الجلوس، وتركت الشجرة، وذهبت إلى صحراء الدنيا رغماً عنك، لسان حالك يردد حينها ويقول: هو شمس وباقي رجال الكون كواكب، إذا ظهر الحبيب «لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كوكب». ولكن الحال يختلف من حبيب لآخر، أو من حب لغيره، ومن حياة لأخرى، ومن شخص لآخر.

أذكر ذات مرة في جمع قوم سأل أحدهم قائلاً :

-ما هو الحب؟ كل منكم يُعطيني تعريفاً للحب كما يراه .

أردت سماعهم جميعاً، ومن ثم أُجيب.

رد أحدهم :

-هو ماء يروي الروح والجسد، فيكون منه كلُّ شيء حي.

رد غيره غير مبال بالأمر كثيراً، وهو يُلصق عقب سيجارته

بالمطفاة :





-لستُ أدري.. لكن ما أشعر به هو أمر عجيب، تختلط لديّ
مشاعر الحب مع الكره مع اللا شيء، كثيرًا ما أقف مبهورًا قائلًا:
ثرى أُمحِب أنا أم كاره؟! أم أني صاحب اللا شيء؟

ثم قال آخر :

-هو أمان؛ بل كان أمانًا متى كان، أنا لا أريد أن أُعرّفه، أنا أريد
أن أُرِد على من عرّفه ذات يوم.. (الدكتور محمد طه) القائل بأن:
(الحب هو الجراحة الناجحة لكل القلوب) أقول له: أتتخذون من
ذات الميكروب مضادًا؟ أتجعلون من سبب المرض علاجًا؟ اعتزال
الحب هو الوقاية، والوقاية خير من العلاج.. خير من الجراحة!

وقال آخر :

-قلتُ لها يومًا عندما ذهبت: ألم تقولي سأصوم عن كل حب
لغيرك؟ ردت بكل برود :حان الآن موعد أذان المغرب! صدى
صوت القهقهة في المكان لبرهة، ثم تنهدت إحداهنّ، وقالت بلهجة
حزينة، يملأُ وجهها الأسى، وهي تنظر بعيدًا مد الأفق :



-حكايتي مع الحب طويلة، لقد أحببتُ الحب فعلياً استكثرته،
قالوا: كثيراً على الحبّ أن يُحب.. ليس بألسنتهم، بل بلسان حالهم،
كنت أحلم بالجمال، وكنت أرى في عالمي الكمال، كنت أود الحياة؛
فكرهت الحياة منذ أن كُره الحب، فعالمي عالم مادي ظاهري
اجتماعي، لقد كنت أشعر بالصدق في داخلي؛ صدق الفطرة وصدق
الحب. قالوا ليس للحب وجود، فأصبح الصدق كذباً، وكذب عالمهم
هو الصدق!

عالم مخبول مجنون فقد عقله، حد فقد القلب؛ فأصبح لا عقل
لديه ولا قلب... فَمَنْ مَيِّتُ الآن؟! أيحكم الميت على حي يُرزق
بالموت؟ فأنتي للعالم هذا يحكم عليّ بموت؟!

لِمَ لا وقد فعلها سابقاً منذ أن أحببتُ الحب فاعترض.. فمِتُّ..
وهل يموت الفرد مرتين؟! يموت الفرد مرة وإن سُلخ بعدها فلا
بأس، إذًا، تَمَنَّ عليّ أيها العالم الميت.. تَمَنَّ عليّ أيها الجسد العفن..
وإن حدثت صدفة المليون عام ورجعت إلى رشدك يوماً ما؛ فلا



تتذكرني يا ذا العالم فقد متُّ أنا منذ أن كان كثيرًا على الحبِّ أن
يُحب !

ثم سقط جفناها بعد أن كان يمد بصرها بعيدًا للأفق، سقط إلى
أسفل سافلين، ينم عن حزن نامٍ ترعرع في جلستها هذه ما
يترعرعه المرء منذ ولادته، وحتى مماته، وصمت الجميع هُنَيْهَات.

قطعتُ أنا الصمتَ قائلة :

-كلهم تائهون، كلهم فارغون، كلهم عنك يبحثون ويفتشون،
كل منهم يبحث عن قلبه هذا المكنون، مكنون بغيابك أيها الحب،
تائهون عنك باحثون في لهفة المجنون، في كل كلمة، في كل حرف، في
كل فعل.. وجودك يتمنون، ففي كل شيء للحب كنه، والقلب
مكنون، أليسوا هم إِدًا بتائهيين؟! وما إن يجدوك تفر منهم بكسر
للقلب، أو جرح أحمر مشثوم، ساحك الله!

نظرتُ إليَّ الفتاة ورمت إلى أَيْ أُشاطرها الحزن الأسير، فهونت
على قلبها قليلًا.



وقد تعمّدت الحديث عن الحب بهذا العرض حينها.. وقد وجدت حديث الفتاة فرصة لذلك، وهذا كي أخبرهم بدستور الحب المُخالفين إياه، حتى وقعوا في الحب! فلا بد من معرفته حق المعرفة، بل واتباعه حتى لا يقع أحدهم في جب الحب، وإن وقع فلنأخذ بيده حتى لا يقع مرة ثانية في جب آخر أعمق.

الحب هو نشاط في وقت صحيح، وللشخص الصحيح، وحب الذات حبا بريئا هو أجلّ نشاط لأعظم شخص، في كل وقت، الحب نشاط تعلّمه في ذاتك.. ولا تنتظر لَمَّا يأتي أحدهم يوماً.

يقول (إريك فروم) في كتابه (فن الحب) ما معناه :

-إن الشعور بالوحدة يستعجل الحب، فإن شعرت بحب أحدهم وأنت وحيدٌ؛ فاعلم أنه التعلق.. لا الحب. أما عن التمتع بالوحدة، فلا تنظر لها كأنها وحدة حقيقية، بل اجعلها كخلوة، وخلوة النفس نقاء، فلا تحرم نفسك من خلوتها.





الوحدة حين تكون وحدة هي فرشاة تالفة تلون الحب بألوان طيف قاتمة لرائيها، وهي في الحقيقة نور أبيض بياضه ناصع لمن يرى فيها خلوة .

وكل هذا ينجح بالسلم الذي يعلو شيئاً فشيئاً ولا يمكن أن تعلو درجاته العليا قبل السفلى، وماذا إن لم يكن هناك أم حنون أو أب رقيق؟ فلتصعد الصعدة القصوى ولن تجد وحدة في الإيمان بالمعتقد.. ستستحي نفسك أن تشعر بمجرد الوحدة، والله يرافقها في كل حين.

فإن رزقك الله باهتمام أحدهم يوماً اعلم أن الاهتمام يولد الحب، يولده حباً كامل النمو غير شكاء ولا بكاء، يولده ولادة طبيعية طبيبها القلوب، وصرخاتها آلام الاشتياق؛ اشتياق لمولود الحب الجديد، وأبواه المحبوبان، ويأتي الحب الجنيني الذي عليهما رعايته، رعايته بالخلق والإحسان رعايته بأن يجعلانه ينمو في رعاية أكبر منهما، رعاية الله ووفقاً لتعاليمه.



عليهما إن أرادا حفظًا فليحفظاه برباط وتيد، وبجبل الله
فليعتصما، فإن لم يفعلا وإن لم يحفظا.. فله ما أخذ ولله ما أعطى،
فرحمة الله على صغير كان ضحية الآباء!

فما الاهتمام إلا قدر، وما الاهتمام إلا وليد، وليد تزواج
الأنفس وتلاقي الأرواح .. لتنجب مولودها الثاني من الحب، فإن
وُلد بصحة جيدة، وإن حفظه الله لهم؛ فليعلموا معنى الحب في
داخلهم، وليوقنوا أن الحب هو إرخاء أحدهم حين يشد الآخر؛ حتى
لا ينقطع حبل الوصال. أرخوه حد حب قيس لليلي :

يحكى أن قيس «مجنون ليلي» تبع كلب ليلي، فمرَّ كلبها أمام
مُصَلِّينَ، فتبعه قيس إلى أن أوصله إلى ليلي.. وفي عودته قال
المُصلون لقيس: أتمر أماننا ونحن نُصلي؟! فقال لهم: أوكنتم
تُصلون؟! والله لم أركم.. ولو كُنتم تحبون الله مثل حبي ليلي لَمَا
رأيتُموني !

اللَّهُمَّ حَبًّا كحب قيس لليلي، واللَّهُمَّ اجعل حبك فوق كل حب.





فلتحبوا بقلب يصحبه العقل، العقل الذي يعي معنى اللا
ديمومة حق معنى، فيحب بقدر ما غير كثير وغير قليل، بقدر
البقاء الطبيعي، وبقدر الفراق الصناعي، حتى لا ينهار القلب إن
ذهب أحدهم يوماً ذهاب الآخرة أو ذهاب الدنيا.

قانون اللا ديمومة حارس القلوب وساكن الألباب، ولا
تحزن، فاللا ديمومة للحزن فرح، وللحب حب لما بعد الحياة، لا
تحزن فكل شيء هالك إلا وجهه، وإلا الحب لما بعد الهلاك، حب ثان
بل حب دائم في الجنان، فلتطمئن ولتحب كما يجب أن تفعل،
وبقدر ما تشاء، ولا تنس اللا ديمومة .





ولن نضع في أذهاننا صحة الإسلام، ولن نقرره بالخطأ الغربي،
فالعَدل لا يمكن إثباته بظلم الغرب لِفَتَاتِهِ، بل بحقيقة العَدل في
ذاته.



الإسلام في المرأة

(مطلوب موظفة حسنة المظهر)

بهذه العبارة وأمثالها تمتلئ إعلانات اليوم، ومن ثم تجد الفتاة تقرأ إعلان الوظيفة، ثم لا تلبث أن تستعد له بقدر ما استطاعت، فتتجمل وتزين طبيعياً، فإن لم تستطع فصناعياً فقط.. بواحد أو اثنين كيلو طلاء للوجه، ونصف آخر بألوان جذابة لمناطق أخرى بالوجه أيضاً! ما علينا، هذه فتاة مسلمة تقطن مجتمعاً إسلامياً أو غير إسلامي، فلو كان إسلامياً لَمَا قِيلَ بنص الجملة: (مطلوب موظفة حسنة المظهر).

ويخرج أحدهم يوماً ويقول: الإسلام سر تأخر المجتمعات، فهو سر تأخر المرأة؛ أي سر تأخر نصف المجتمع. أخي، أين هو الإسلام أين هو من سبب تأخر النساء والرجال.. أين هو؟! أهو في قول أحدهم (مطلوب موظفة حسنة المظهر)؟! أم في إحداهن تتجمل وتزين لتحصل على وظيفة هذا الرجل؟! إننا.. بل العالم أجمع..



سنكون حقا بحاجة للشك في الإسلام أتدري متى؟ لو حدث التقدم
بيننا على وضعنا هذا والإسلام بعيد عنا!

دعك من هذا، لا أتحدث هنا عن مثل هؤلاء، ولكن بشأن
الإسلام في المرأة، لا شك في أن المرأة المسلمة هذه تنظر للفتاة
الغربية المستقلة المجتهدة ذات الثروة نظرة القدوة، وبئسما
اقتدت!

أرى مُخَيِّخٌ أَحَدَكُمْ يَقُولُ كَمَا يَقُولُ مَخَيِّخِي أَنَا: وَلِمَ لَا؟ هِيَ فَتَاةٌ
غَرِيبِيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُجْتَهِدَةٌ حَتَّى أَنْ مَجْتَمَعَهَا فِي تَقَدُّمٍ وَاسْتِقْرَارٍ دَائِمٍ، وَلَوْ
لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا خَيْرٌ لَمَّا تَقَدَّمَ مَجْتَمَعُهَا.. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ تُرَى حَقًّا
أَيُّظَلَمُ الْإِسْلَامُ الْمَرْأَةَ، أَمْ يَحْفَظُ لَهَا حَقَّهَا؟!

تعالوا معًا لنبحث عن أجوبة لهذه الأسئلة، ولن نضع في أذهاننا
صحة الإسلام ولن نقرره بالخطأ الغربي، فالعدل لا يمكن إثباته
بظلم الغرب لِفَتَاتِهِ، بل بحقيقة العدل في ذاته.





هنا في بلاد الحرية كما يقولون، بعيداً عن الأسوار الهوليودية بل خلفها قليلاً، تعالوا لنرى طغيان الحياة على فتاة الغرب، هنا حيث الحرية المطلقة التي تساوي الرجل بالمرأة، وحيث تنطلق حملات تحرير المرأة الغربية ومساواتها بالرجل واستقلالها عن أبيها وأخيها وكل أهلها، تساوت واستقلت وعملت ثم ماذا؟

ثم ها هي قد أصبحت سلعة تُبْتَزُّ من أصحاب العمل، سلعة تُباع كي تحصل هي على المال، لا أب ولا أخ ولا أسرة تعولها، فأني لها أن تجني المال، وتحيا لو حاربت مديرها أو صاحبها أو أي مبتزِّ لها؟ حتى أنها دخلت العمل السياسي فكانت أداة مهمة، وغنيمة سهلة للرأسماليين والساسة، وحتى للدولة، فالمرأة المستقلة تعني عملاً أكثر.. فضرائب أكثر!

هذه «جلوريا سناينم» أشهر الناشطات النسويات الأمريكية التي كانت تنادى باستقلال المرأة ومساواتها.. تعلن بلا حرج إمداد وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية لها بالمال لدعم نشاطاتها، إلى أن انتقدها بعض النساء بأنها تُحَرِّف هذا النشاط؛ فخرجت في



مقابلة تبرر فعلتها، وهي مؤسّسة لمجلة (سوبر وومن) التي وصلت إلى جعل الفتاة إلهاً نتيجةً لمناداتها باستقلال المرأة، وهي تشرف على مركز الأبحاث المستقلة.. المستقلة!

أين الاستقلال وها هم الساسة يمدونها بالأموال؟! بعد هذا التدخل السياسي يبدو أن نتاج أبحاثها لا يختلف كثيرًا عن الحياة الهوليودية.

في بحث حقيقي منشور سُئل فيه عدد من الأميركيين عن أكثر صفة تجذبهم في الرجال والنساء، كانت الأخلاق والأمانة هي الصفة المُختارة بالنسبة للنساء، وجاذبية المرأة بالنسبة للرجال من أكثر الإجابات.

يقول رجل أعمال أمريكي في حوار جاد :

-اصطحاب المرأة بالنسبة لي كحضور في سيارة فخمة! فكلما كانت الفتاة التي تلازمي مُلفتة وجذابة؛ كلما جعلني هذا مرموقًا أكثر في مجتمعي.. وبالتالي أجني أموالاً أكثر.





ولم يكفوا عن هذا ولم يكتفوا بذلك، بل جاؤوا يدعوننا لاستقلال المرأة في بلادنا؛ فهذه الجمعية العامة للأمم المتحدة تعلن اتفاقية بعنوان (القضاء على كافة أنواع التمييز ضد المرأة) وهي اتفاقية وقعت عليها بعض دول العالم الإسلامي كذلك؛ والتي تنص على قوانين كثيرة مثل مساواة الرجل بالمرأة في الميراث، وإعطائها الحرية الجنسية، وإباحة الزنا، وإلغاء تجريم الإجهاض. والغريب في الأمر أن أمريكا لم تقنن بنود هذه الاتفاقية كاملة حتى الآن.

ومن أعوام قريبة في تقرير مشترك مع منظمة محلية بفلسطين سارعوا بتطبيق هذه القوانين، منكرين على بعض الدول عدم الاكتراث بقوانينهم قائلين :

ما لكم؟ أما زلتم تحتاجون لولي لزواج المرأة؟! هل ما زلتم ترون الحرية الجنسية على أنها زنا؟ هل ما زلتم لا تساوون بين الرجل والمرأة في الميراث؟

هل ما زلتم وإلام؟ ثم هل وهل... إلخ.





أي بعبارة أخرى؛ استحلال الحرام، وتصعيب الحلال، وتفكيك الأسرة .

واعجابه، أحافظون أنتم للحقوق حقا؟! من الذي يتحدث عن حق المرأة المسلمة؟ أصحاب الظلم أنفسهم يتكلمون أم أنه الظلم ذاته؟ تظهرون الشفقة على المرأة المسلمة، وتريدون نصرتها من اضطهاد دينها؟! يا له من سلام! وماذا ستجنون؟ دعك من ذلك، أعطِ ربع اهتمامك هذا للنساء ولأطفالهن هنا وهناك.. من الذين يخزّب الاستعمار ديارهم، ويهينهم أيما إهانة، ويفعل بهم الأفاعيل، أليسوا بأولى؟!

أعلنوا من أجلهم اتفاقية، وسارعوا إلى تنفيذها، ثم تعالوا وتحدثوا عن ما أنتم بصده الآن، انظروا إلى ما فعله التفكك الأسري لديكم، أبحاث كل يوم وكل ساعة تعلن ارتفاع نسبة أطفال الشوارع حيث لا أسرة ولا ملاذ!





علمت الآن ماذا كان واره (مطلوب موظفة حسنة المظهر).. ثقافتكم الشعبانية تزحف شيئًا فشيئًا، ولكن هيهات، فلم تستطع الفتيات الغربيات أن يصمدن أمام ما أصابهن من ظلم فاجر، فهن يدخلن الإسلام أفواجًا، استنادًا إلى أبحاث منشورة من جامعة كامبريدج عام (٢٠١٢)، فقد كان ثمانون بالمئة من الذين اهتدوا إلى الإسلام نساءً، وهذا يدل على ظلم الغرب للمرأة، فلتأتوا ولتأخذوا مِنَّا الاتفاقيات، لا لناخذها نحن منكم، تقول إحداهن بعد إسلامها :

-ما دخلت الإسلام لأنه ينصفني فقط، بل لأني وجدت نفسي فيه.

ومن هنا كان (الإسلام في المرأة)؛ كان فيها منذ أن دخل هواء الأرض لرتبتها أول مرة، كان فيها منذ أن وُلدت في الجاهلية فجاء لينقذها من وأد الجهل والجهلاء، بعد أن كانوا يتوارون من القوم إذا بُشِّرَ أحدهم بها، يودون في التراب دسَّها، إلى أن جاء الإسلام، وقال: (ألا ساء ما يحكمون). سورة النحل (٥٩)



هكذا أحيائها بعد أن أماتها الجاهلون، وظل يُحييها ما دامت،
وظل يرهاها بأحكام من الله، أحكام خاصة لها هي لأنها شيء خاص
بالنسبة له، لأنها نفيسة وإلا لما اهتم بها كل هذا الاهتمام ولما أُجِّلَّها
أيما إجلال، هي شيء خاص حد التعظيم، وثمين حد استحقاق
المحافظة عليه.

فلا استقلَّت ولا ذُلَّت، بل كانت ملكة الدار، والأحب إلى
أهلها؛ يقول رسول الله ﷺ: «أحب أهلي إليّ فاطمة». (حَسَنه
الترمذي) وفي قول آخر: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني»
(رواه البخاري)

وها هو الإسلام يعطيها حرية الذهاب للمسجد وحرية القتال
والجهاد بعد أن كان مُحَرَّمًا عليها الذهاب لخارج منزلها أيا يكن
الأمر وأيا كان، وأعطاهها حرية الحديث فما كانت صوتها عورة كما
يزعم البعض، يقول جل علاه يخاطب نساء النبي :

(فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) الأحزاب (٣٢).

أي يا جوهرة (أنتِ وهي).. أنتِ مطمَعٌ، ومطمَعٌ كبير لمرضى القلوب، أنتِ نجم لامع فلتخفتي نوره قليلاً ولكن لا تطفئيه، تحدثي وأفصحي عن رأيك ولا تخشي شيئاً إلا مرضى القلوب، فمتى تتحدثين قولي قولاً معروفاً جميلاً كعرفك وجمالك يا جميلة.

وتعاملي مع الجميع ولكن كما أمرك الله، فالخالق أدرى بمخلوقه، ولو أن الإسلام حرّم تعامل المرأة مع أفراد مجتمعها في العمل أو في الشارع أو في أي مكان تزوره، لَمَا وضع لهذا التعامل أسساً وأحكاماً.. وضع أساس البيت ما هو إلا لبنيانه، ثم جعل خيرهنّ أقربهنّ لله وأتقاهنّ وأكثرهنّ حِفْظًا لبيتها، وفرجها، وأبنائها، وليس أحسنهنّ مظهرًا.

ويعلمُ الله ما في نفس بني آدم ويعلم ما في نفوس العالمين، فهذا حديث عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها،



ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك». (رواه البخاري ومسلم).

وهكذا عظم الإسلام المرأة حتى في زواجها كونها صاحبة البيت، وأساس الأسرة، ومربية الأجيال ومن ثم معمرة للأرض، فهي هي تؤدي عظيم مهمة الإنسان في أرضه، حتى وإن جار عليها الزمان وأصبحت بمفردها.. يهتف أحد العظماء: (اصنعيني يا أماء)؛ يقول:

مات أبي وأنا في الثالثة، ولما بلغت السابعة كانت أمي توقظني لقيام الليل، وفي الشتاء تسخن لي الماء، وكانت تخرج بي لصلاة الفجر، ولما بلغت السادسة عشر من عمري قالت لي سافري يا بني واطلب العلم فذلك جهاد.. فكان الإمام أحمد بن حنبل!

ها هن يصنعن الرجال، أمهات مسلمات يصنعن الرجال.. وحتى في أسوأ الأحوال الاجتماعية يضع لها ربها الأحكام حتى في أبغض حالاته، فيحفظها بعدتها، وما أباح الله الطلاق إلا ليحفظها.

هكذا نرى الفلبين وغيرها من الدول الغربية تقنن الطلاق في بلادها سنة ٢٠١٨ تقنينًا مؤكدًا بعد أن ضاقت زرعًا بقوانين أخرى لا تناسب الإنسان، وبعد أن عارضت الكنيسة الكاثوليكية أي عقود أو جهود لتقنين الطلاق في الفلبين، ولكن أتى لها؟ أتى لها والقانون يحاول الحفاظ على حقوق الفرد، أتى لها من أسباب الانفصال مثل الخيانة أو الإساءة أو وجود خلافات لا يمكن قطعًا حلها.

لذا فقد جاء في بيان رسمي: (تقنين إباحة الانفصال بين الزوجين بصورة كاملة، حيث يعود الزوج والزوجة لحالة العزوبية ويكون لهما الحق في الزواج مجددًا). فيما أسموه بالطلاق المُطلق. إلا أن إجراءات الانفصال القانوني أو فسخ العقد لديهم يستغرقان وقتًا طويلًا ويتكلفان أموالاً باهظة.

أرأيتم كم أن الإسلام يسر، أتتخيلون لو قلت لكم يومًا أن ديننا يسر في الطلاق! أكنتم مصدق؟! ها هو يسر يسير، يُظهره الله على الدين كله، يظهره في تغيير النظام وتقنين القوانين، وإن لم



يكونوا مسلمين. يُظهره فيهم ليس كدين بل كنظام، ويا له من إظهار!

نعود للمرأة وما نعود منها إلا إليها، نعود لنرى حالها في حال أسوأ من ذي قبل بموت الزوج، فيزيد الله العدة شيئًا وكأنه يشعر بها ويعلم بوفائها.. وفاء المرأة المسلمة للزوج المسلم، لقد حفظ حياتها بأن جعل العدة لا تدوم ولا تطول.. فقط أربعة أشهر وعشرة أيام.. لكن لست أدري لِمَ يديمونها في بلاد مسلمة؟!

يموت زوج المرأة اليوم وتموت هي معه في ذات اليوم، تموت وهي حيّة تُرَزَق، تموت بألّا تحيا حياة الآخرين مرة أخرى، فتلزم سواد ثيابها وتلزم اجتناب زواجها، هي عادات وتقاليد ولو لم تلزم يعتبره الناس عيبًا كبيرًا عليها..

أحيانًا تختلط علينا العادات بالدين فلا ندري أهى من التقليد والعادة أم أنه من أحكام الدين، وما دامت العادة شيئًا والدين شيئًا





آخر يدوم الالتباس، ويدوم اتهام الدين زورًا، وتدوم نحن في الجاهلية التي كانوا عليها قبل الإسلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» سورة البقرة (٢٣٤).

«لا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف»، يقول الله تعالى: لا جناح عليكم، عليكم لا عليها وكأنه يعلم حقًا ما نحن فيه ويعلم ما سيحل بالمجتمع من عادة وفكر وتقليد.

وكانه يبلغ الشيء ذاته للجميع ليصبح جميعنا مسئولًا، مسئولًا عن التقليد واتهام الإسلام زورًا.. تقليد الجهل حيثما كان، وقد كان حقًا في زمن الجاهلية قبل الإسلام؛ كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشًا؛ أي شر البيوت وأضيقتها، ولبست شرّ ثيابها، ولم تمس طيبًا حتى تمر سنة كاملة، ثم تُؤتَى بدابة: حمار، أو شاة، أو





طائر.. فتمسح به جلدها حتى يموت، ثم تخرج فتُعطي بَعْرَةً فَتَرْمِي
بِهَا، وَتَنْقَطِعُ بِذَلِكَ عَدَّتُهَا!





وتصبح الفتاة منهم سيدهً؛ طالما أحسنت لقاء مثل هذه الشياطين
وأحببت أنسهم وانتظرتهم كلَّ عصرية يومٍ على مقاعد الأبواب.





الصدقة

عزيزي..

دائماً ما ترسم في ذهنك صورة الأصدقاء بأنهم الذين يتحادثون كثيراً؛ لا عن دنياهم فقط، بل عن الجميع، يتغامزون، ويغتابون، ويضحكون، وأنت تظن حينها أن الصداقة أخذت مجراها في التطور والتوثيق.

في زمن مضى كنت كذلك، كنت أرى أنه كلما ازداد حديثي مع الصديقة؛ ازدادت صداقتنا، وشعرت بأننا أقرب وأقرب. لا يهم فيما نتحدث؟ ومن نغتاب؟ وعلامَ نملأُ الجو بالضحكات؟! المهم أننا نقترب ونتقارب .

فما كان الحديث يزداد إلا وجلب معه من السيئات ما جلب من حديث تنمر حيناً وغيبة حيناً آخر، ونميمة أحياناً أخرى، نشعر حينها بتوطيد العلاقة.. وما هي إلا علاقة شيطانية، فلو كانت صداقة ما كانت إلا بين ثلاثة، صداقة بين اثنين ثالثهما شيطان!



عرفتُ حينها أنها ليست هذه هي الصداقة، وما كانت ولن تكون بكثرة الحديث، ولا بحب التمر في كل حين.

يوما ما حسبتها بكثرة الحديث الباطل، كما حسبت يوما أن الكِبَر والبلوغ يحدث حتماً بالانضمام إلى حزب النساء، ذلك الجمع الذي يحدث في القرية في وقت العصرية والمشاركة في المجلس النسوي الذي لطالما فهمت ما يقال فيه، وأتقنت الحديث والمشاركة، لكننا أصبحت -اليوم فقط- بالغة يافعة شابة، لكننا أصبحت من حزب النساء العاقلات الكبيرات اللاتي يسمع بعضهن لبعض، ويحترم بعضهن بعضاً، ويسأل بعضهن عن بعض، وعن أسرار البيوت فأحببت الموضوع.

وحال مجلسهن كالمعتاد مجلس بلا هدف، لا يجتمعن فيه نسوة بعد عصرية أو مغربية إلاً وثالثهن الشياطين، شياطين الغيبة والنميمة حيناً... شيطان التمر حيناً آخر، وشياطين لعينة من حُب الفضول والتدخل في ما لا يعني المرء، وتصبح الفتاة منهم سيدهً ظالماً أحسنت لقاء مثل هذه الشياطين، وطلما أحببت أنسهم،



وانتظرتهم كل عصرية يومٍ على مقاعد الأبواب، هي سيدة وليست فتاة لظالما تزوجها النظر على المارة بين الفئنة والأخرى وإنما لتجد في ذلك عملاً جليلاً معتاداً لا خطأ فيه ولا عيب، وتستغل الفئنة والأخرى في الحديث عما وصل إليه جهدها في وقت ما بين الفئنة والأخرى وهي تتحسر وتتمنى لو خلقت بدماغين وأربعة أعين؛ فلا يفوتها أحد من المارة وهي مشغولة في حديث كان في الفئنة أو في الأخرى!

كنت أحسبهن سيدات فاضلات عاقلات وصديقات، ويا له من حسابان ضال أرشده الدين والخلق الحسن إلى الحقيقة.. فما هؤلاء بنسوة وما هؤلاء بأصدقاء ما هم بذلك ولن يكونوا البتة.

عن أبي موسى الأشعري: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِذَا أُنْ يُحْدِثُكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ،



وَأَمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَجْرُقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتَنَةً». متفق عليه

فاختر ما تشاء، اختر المسك أو العفن، سبحان من جعلنا نملك العقول وأعطانا حرية الاختيار، سبحان من رزقنا بالأنوف نميز بها ريح المسك من الريح المنتنة، سبحان من أعطانا القلوب نميز بها الحبيث من الطيب .. سبحان من وهبنا دينًا لنكون على خلقه.

يقول الله تعالى: «ويل لكل همزة لمزة» (سورة الهمزة) .

لِكُلِّ هَمْزَةٍ : أي لكل مغتاب للناس يغتابهم ويغضهم، ويعني باللمزة: الذي يعيب الناس، ويطعن فيهم، أمّا كلمة ويل فتساويهم بالمطففين، يا للهول أهي صداقة أم استيفاء كيل!؟

أهم حقًا كالمطففين، دعك من هذا... ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون؟! إن الصداقة من الصدق، والصدق من أجمل المعاني، فكيف يجتمع الصدق بالويل؟ ولما كان الصديق من الصدق سمّاه





صديقه الصّدِّيق، الصدق في الخوف على الصديق وفداه وقت الشدة،
الصدق في المشاعر والأحاسيس، والصادق لا يغتاب.. والله لا
يغتاب ولا يغش الكيل.

مَنْ تَأْمَلْ حَيَاةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ:

وجد للصدّاقة مكانة كبيرة واضحة في سيرته، الصدّاقة التي
يملؤها الصدق لا الكذب، الفداء والتضحية لا الحقد والحسد،
الحب لا الكره، الخلود لا الويل... فكان لصديقه أبي بكر منزلة
سامية نراها في تعامله معه، ونحسها في أحاديثه، ونشعر بها في
تسميته بالصّدِّيق، لقد رأينا الصدّاقة في حياته وحتى بعد مماته فكان
أبو بكر خليفة من بعده، فلا أحد أشبه بالرسول منه، ولا أحد
أولى بالخلافة وأقدر على تولى الأمور إلا صديقاً قريباً حميماً مأموناً
على خلافة وإمامة أمةٍ بعد الموت، كما كان صادقاً وحميماً ومأموناً
وحريصاً كل الحرص على حياة صديق قبل الموت.

إنه لمن الذكاء أن تختار علاقة لآخرتك... نعم، ومن الغباء كل
الغباء أن تكونَ كلّ حياتك دنياك، إي وربي.





في الوسيط للواحيدي عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول :

«إن الرجل يقول في الجنة ما فعل صديقي؟ وصديقه في الجحيم
فيقول الله عز وجل: أخرجوا له صديقه إلى الجنة. فيقول مَنْ بقي
فيها: «فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم» .

يا حَسْرَتِي على من بقي فيها... يا حَسْرَتِي على مَنْ لا شافع له في
الجنة، ولا صديقًا حميمًا له هنالك.

حديث عظيم يكمن فيه كنه الصداقة الحقيقية.

هذه هي العلاقات التي تستحق الجهد والعناء والتضحية من
أجلها، هذه هي علاقات للأخرة، صادقوا يا إخواني واختاروا
بذكاء... ببساطة، اختاروا أهل الجنان.

أذكر حديثًا مع الصحبة ما أجمله، حديثًا لا كحديث جلسة
النسوة السابقة بل حديثًا جميلًا كان عن الله وعن الآخرة، كان
الجنان وما بها، كان عن قول الله لنا «السلام عليكم» يوم أن



يرزقنا بالجنان.. فطال التخيل ورقت القلوب وصمتت الألسنة
وكأنها تنتظر يومها حاملة مستقرة، ففضينا يومنا في التخيل وعبرنا
أسوار الواقع.

حتى ظهر مرح الأصدقاء وأخذنا نقول لأنفسنا؛ فيها ما لا عين
رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلنبالغ في التخيل يا
أصدقاء فيخطر على قلبنا ما يخطر فيزداد كنه الجنان!

وختمنا حديثنا باتفاق كان نصّه؛ من لم يجد الآخر في الجنان،
يسأل عنه!

الحق أنني حاولت سابقًا أن أصنع صنيع شوقي، وأبدل الكتب
بالصحاب، فوجدت أن الحبر صاحب الكتاب تمامًا كصحة نسوة
العصرية فما الحبر إلا قلم، وقد وجدت أن القلم صديق فاضح، وإن
كان يومًا حنونًا، واعتقدت أن صداقة الإنسان جرمٌ، فأثني لي الحين
بصديق كتوم؟! عرفت أن الكتاب لن يأتي اليوم الذي سيسأل عني
فيه، وإن أدخله الله الفردوس! وأن صداقة الصدق ليس مجرم.



الكتاب صديق ولكن الصداقة لن تكتمل إلا بصديق من
ذات الجنس، المهم .. صادقوا بصدق وإن كان الصديق كتاب.





ألم يكن يعلم مَنْ ألقاها في سلام أَنْ ستقبضها آهاتٌ مُلتاعةٌ

لعجوزٍ؟!

ما رأيتُ تحت السماء أشقى منه حالاً



كنتُ أضشى عليه!

في تلك اللحظة كانت الشمس قد نالت من الأرض غايتها،
وعَجَّت الطرقات بأوبة أسراب.. منهم للعلم طالب، ومنهم
للحكومة خادم، وقد رَشْتهم شمسُ يومهم بالعرق رَشًّا، يُسرعون
الخُطى إلى جنتهم اليومية، إلى أسرةٍ أو صديقٍ أو لا شيء، بعد أن
قضوا يومهم في الطلبِ أو في الخدمة.

وقد كنتُ أصنعُ صنيعهم كنتُ أسرعُ الخطا إلى جنتي
اليومية.. إلى الأصدقاء حيث السكن الجامعي، كان جنة بالنسبة
لازدحام ترش فيه الشمس حرارتها بالعرق رَشًّا.

وبينما أنا على ذلك، إذُ تَصَلَّبت ساقاي، وتصلَّب الجفنُ جاحِظًا
عَيْناي، واهتَزَّ القلب هِزةً إشفاق، وكأنه لَمَّا شَعِر بذلك من قبل،
ولمَّا عرف للشفقة معنىً إلا حينها، ذلك حين أبصرته.. ما صدَّقْتُ
عيني، أخبرتني بصدقهما تلك الصديقة التي رأْتُ ما رأيتُ، ولو لم
تكن صديقة.. لَمَّا صدَّقْتُها!



رأينا براءةً كبراءة الأطفال، ذات وجهٍ من تجاعيدٍ كثيرة، لو كانت طرفنا مثله لما اهتدينا البتّة! تجاعيدٌ تدل على مرور الزمان وجُور الأيام، ورأسه قد اشتعل شيبًا، على وجهه وسامة، وعن مدخل طعامه، مثله كمثلي تجعيدة من هؤلاء الكثر في وجهه.

اُختطفته عيناى خطفًا... عجوزٌ يبدو أنه قد جاوز الثمانين أو التسعين من عمره! لم يكن يُسرِع الخطأ كغيره أو كمثلي، ليس لأنه طاعن في العمر، فقد كان مستندًا إلى صندوق القمامة الجرار، ليس ليستند إليه؛ بل ليسترخ برهة من عمله.. فقد اتخذ من إفراغه بابًا للرزق! ذلك الذي يجهد النهوض وإن كان -فقط- لقضاء الحاجة، هو عامل نظافة.

رأيتَه بكفِّه التي تَرْتَعَش ذهابًا وإيابًا إلى داخل الصندوق الذي تَرَبَّع على الأرض بطوله وعرضه، وارتفع عن الأرض كثيرًا، كانت حركته بطيئة كلَّ البطء، وكنتُ أخشى عليه تلك اللِّفافة الخفيفة الثقيلة من أن تُوقِعَهُ أرضًا، والتي التقط عشرات مثلها ليَحْشُو بها عرْبَة القمامة والتي تقف بجانب الصندوق القوي



الضخم، عربته تلك التي امتلأت بقمامات أخرى، من طرقات
أخرى، ولأناس آخرين.

ألم يكن يعلم مَنْ ألقاها أَنْ مَنْ سينحني لها هو ذلك المُعَمَّر
الهزيل تحت شمس قد اشتَّتْ نارها؟ ألم يكن يعلم مَنْ ألقاها في
سلام أَنْ ستقبضها آهاتٌ مُلتاعةٌ لعجوزٍ؟!
ما رأيتُ تحت السماء أشقى منه حالاً!

أهي عمياء تلك البشرية إلى هذا الحد؟ أهي عمياء القلب
والبصر معاً؟ أهي عمياء القلب أم على قلوب أبقاها؟! وإن من القفل
لما يُكسر فيفتح ما يُفتح.. وإنَّ منه لما يصدأ فيزيد القلب عَمَى
وقسوة؟ أم تحجرت تلك القلوب؟ وإنَّ من الحجارة لما ينشق، وإن
منها لما يتفجّر منه الأنهار، فما بالناس وما بال مَنْ حولي لا يهزم
شيءٌ؟.. يا للهول!

ولم أُحوّل عيني عنه، وقبل أن أوجه خطاي نحوه جذبتني
الصديقة بندائها إياي، لم أنتبه لها كثيراً، وعدت سريعاً ببصري إلي





مكان العجوز، فوجدت المكان ولم أجد العجوز... كان العجوز قد
انسرق! إلي أين ارتحل؟ ولم انسرق؟ وعلامَ تَعَجَّل؟ وحتّامَ سيعمل؟!
لستُ أدري، لكني تمنّيتُ لو احتَضَنْتُ أمره ولو ساعة.

أسوان، ٢٠١٧م - شارع مدينة ناصر للطالبات



هنا حيث يجتمع رجال الأعمال، حيث يجتمع الباحثون عربًا
وغير عرب، وحيث تُعقد المؤتمرات الدولية الطبية والهندسية، في
ذلك الصرح الضخم الفخم لطالما حضرتُ إليه مددتُ بصري إلى
أعلى لأرى عظمة البنيان قائمة لنفسي: كيف يمكن أن يحدث
هذا بذلك الشكل العظيم الفخم، إنه لا يختلف كثيرًا عن عظمة
الأهرامات.. أقولها بعد أن يمتد بصري إلى الأعلى وبعيدًا بعيدًا جدًا
حتى يصل إلى آخر المبنى فيجد السماء.

هنا فندق (كونتيننتال) بالقاهرة حيث (سيتي ستارز)، هنا
الخدمة الممتازة والتنظيم الجيد والفخامة والروعة.. روعة الجمال
وروعة الهندسة وروعة الحياة وراحة المقيم.. هنا الرفاهية على قدر
كبير، رفاهية في المأكل والملبس والمشرب، رفاهية تتجلى في الحديث
والرؤية، رفاهية تدعن بقدم عام ألفين ومائة ميلادية إن لم يكن
بعده بأعوام.

هنا رفاهية الأمن والأمان، رجال أمن من رتبة الضباط في كل
مكان وعلى أتم وجه وبكل نظام. تتوالى السيارات حينًا بعد حين،



حيث تقف أمام رجال الأمن ثم يفتح سائقها السيارة لينزل منها بأقصى سرعته فيفتح بابها الآخر فينزل منها رجل أعمال ويسير على أرض الفندق الضخم متوجهاً إلى صالة مؤتمر أو إلى غرفة نوم أو حتى ل «أوبن بوفيه».

لو تحركنا بأعيننا قليلاً ثم قليلاً، هنا نعم على بعد عشرة أمتار من الفندق، هنا سيدة تحمل أطفالها وتأخذ من جانب الطريق مسكناً لها، وتسأل الذاهبين والعائدين شيئاً، هنا وهناك ويبدو أنها عانت كثيراً في مفرمة الحياة.. يا للزمان، ويا لتقلب الأحوال! ثم على بعد عشرة أمتار أخرى من السيدة، تقع عينك على ما يسعدها ولكن هل تسعد العين بعد أن رأت هذا الشقاء؟

هنا محل الورود يقام على مساحة غير صغيرة، جميل مثير يدخله الناس ويتركونه مبتسمين فرحين بعد أن ابتاعوا لأنفسهم الزهور باختلافها لوناً وشكلاً وبتماثلها جمالاً.





يا لها من حياة متقلبة! يا لها من حياة سعيدة! يا لها من حياة
بأسة! عادلة وغير عادلة..يا للحياة! ويا للخلق!

القاهرة - سيبي ستارز



بجوار النافورة الأوركيدية الشواربية، وفي انتظار الفطائر التي طلبتها لنا صديقتي جلسنا.. الوقت ساعة غروب، ولكن حدث شيء غريب، لم نتوقعه نحن ولم نتوقعه وكالة ناسا الأمريكية، لو أي أخبرت ناسا بما حدث لما صدَّقْتُنِي، ولكن حتماً لجات في الحال طياراً بكاميراتها وعلمائها وتلسكوباتها لتقر بالواقعة!

اليوم ليس بمنصف الشهر العربي، ولا بقرب المنتصف، فلماذا القمر بدر؟

ثم إن القمر دائماً في السماء.. ما الذي جاء به إلى الأرض.. وإلينا خاصة، وبجوارنا تماماً؟! وحسب معلوماتي الفلكية، إن القمر غير مضيء في حقيقته إنما هو ضوء الشمس منعكس عليه، فلماذا هو الآن منير؟

ثم شيء آخر، ما بال القمر يرتدي فستاناً صغيراً متسخاً، وما باله منكوش الشعر الأصفر اللامع رغم نكشته، ثم ما بال عينيه





الزرقاوين الصغيرتين كاللؤلؤ تلمعان وتتمان عن دنيا الظلام رغم
كل هذا النور في وجهه!؟

طفلةٌ لا بل قمر، لا هي طفلة بل جنة.. ما أجمل الطفولة إن
تمثلت فيها، وما أجمل الجنة إن كانت كجمالها.

واقترب القمر وانشقت القلوب، وهي تمد يدها للحاجة.. القمر
يحتاج والقلوب تنشق، وصديقتي تخشى عليّ أنا منها، فما إن أحاول
الحديث مع الصغيرة إذ تمانعني الصديقة خوفًا عليّ !

أتخافين عليّ من القمر، ثم جاءت باقي الكواكب تبث إلينا باقي
الأقمار، بنفس الهيئة .. ما بال ناسا ترصد أقمارًا كل عام وتعتبره
اكتشافًا جليًا، وما بالي لو أخبرتهم بأمر هذه الأقمار هذه المرة..
حقًا، أعتقد أنني سأنال جائزة نوبل في هذا الاكتشاف !

وعلى أي حال سيهتمون بمجالهم اهتمامهم بالأقمار العلوية، ولو
نظرت إليهم لوجدت أنهم أحق بالاهتمام من الأقمار الصناعية،



أحق من الأقمار الصناعية التي تدير الاتصالات وتشغل القنوات الإخبارية والفنية التلفازية في المنزل وخارجه.

والتي تشاهد على إحدى قنواتها فتاة صغيرة لم تبلغ السبعة أعوام من عمرها بعد، تدور في إحدى الشوارع تطلب العون وتشعر بالجوع، فتغلبك الدموع حتى أنها تزداد وتتسابق مع ماء الصنبور فتسبقه وتزداد عليه. كل هذا من مشهد في تلفاز؟!!

وقبل آذان المغرب تخرج من منزلك وأنت تنوي التنزه بعد أن أفسد التلفاز عليك مزاجك، فتقرر قضاء جولة ترفيهية بالذهاب إلى بائع الآيس كريم اللذيذ ومحل عصير القصب الأصلي وأوركيدا التسويقية عند النافورة الأوركيدية الشواربية.. لتصطدم بفتاة كالتي في التلفاز، ولكن الفرق أن التلفاز تمثيل ولكنه يصور الواقع غير الموجود ولكنه الآن أصبح واقعًا موجودًا.. واقعًا مريبًا لا تلتفت إليه إلا لوهلة ثم تقبض بفمك على قمع الآيس كريم كأن شيئًا لم يكن.

أسوان - شارع أوركيدا بالشواري





وهم -مع ذلك- للجميع، للأحياء قاطبة.. دون مقابل
دون مقابل في زمن قد جاء، ذلك الزمن الذي نبتاع فيه الماء،
وندفع لقضاء الحاجة!



العربة المربية

شغب! شغب! شغب!

قالها السائق مرات عديدة، الشغب هي قرية صغيرة في مركز
إسنا بمحافظة الأقصر المصرية، حالها كحال باقي القرى.. شغب!
شغب! يبدو أن السائق على عجلة من أمره، أستأذنكم في الركوب..
ها أنا داخل العربة، فإذا بلحظاتٍ تمضي بعيونٍ تائهة.. كل التيه. في
تلك السيارة (الكبوت) المكبوتة! والمحملة بما لا طاقة لها به، نعم
هي محملة بما لا طاقة لها به ولا بي ولا بغيري.

لو جاء حمار لتعجب ولتذاكى على العقول الإنسانية قائلاً ما
بالكم تملؤون المكان بما لا يطيق، ولو كان الراكب قَطًا لما سمح
لنفسه بالضيق والتلاصق حد كتمان الأنفس.

ولرد السائق، ماذا تقول أيها الحمار؟، العربة لا بد أن تحمل ستة
أفراد في كل جانب، إنه لقانون وإن كانت لا تسع إلا خمسة.
ولسمعت نهيق الحمار بعد ذلك ويكأنه يقول، يا للغباء!



أركب على كل حال فليس لي وسيلة غيرها، ثم في مشوار
النصف ساعة يمتد كأنه نصف قرن، أينما تقع عينك تقع على
وجوه لا مفر منها وإن حاولت التعديل حياءً فأخفستها؛ نعم أي
أخفقت عينيك ستري أرجلاً بنعالٍ تسرُّ الناظرَ حيناً وأحياناً
تُرزعجه، فسرعان ما تحاول التعديل ثانيةً. تُرى، أين أذهب ببصري
هذه المرة؟، أشعر أن لا مكان لي هنا.. لا لي ولا لبصري.

على كل حال سأرفعها قليلاً، ها قد وقعت على أيدي بيضاء يملأ
جذور أصابعها الذهب، لو كنت مكاني لخشيت أن يروك بنظرة
الحاسد فستبعد عينيك قليلاً حيث تقع على أيدي أخرى سمراء
نخيلة فتحشى أن يروك بعين المشفق المتكبر، ثم تعود بعينيك إلى
مكان آخر حيث الأكف الملتفة تشير إلى وضع ممل ينتظر صاحبها
الوصول إلى وجهته.

فلا تعرف إلى أين تنظر إداً، لا يمكنك النظر لا لأعلى ولا
لأسفل. وبينما أنت على ذلك إذ تنظر للخارج من فتحة صغيرة بين
جيش الركاب، فتنقذك تلك اللوحة التي تشي بنصف جمال الأرض



إن لم يكن جُله. إذ تقع عينك على زرقه ماء، وخضرة ما سقاه
تزيده جمالاً وحلاوة، حيث الجمال بمعناه معنوياً كان أو مادياً.

هنا داخل العربة حيث الصيف خريفى، وبنظرة إلى خارجها
تعيش جو الشتاء الربيعي، قد يتهموني بالجنون، وإني -والله- لبريئة
الأديم، ذلك حينما أخبرهم بأني أرى الربيع في الخارج وأسمع صوت
الزهور، وتبادلها الحديث مع الخضرة، وبمغازلة النسيم الهادئ لها..
أو ربما لن يتهموني بشيء لأنهم لن يسمعونني في الازدحام كما لم
يسمعوا الأزهار.

دعك منهم، ماذا عنك أنت.. هل ستتهمني؟

أنا لا أبالغ في وصف الزهرة، ألم ترها كيف تُشعرنا بالراحة
حين مرافقتها؟ ألم ترها تقول (لا) لليبؤس واليأس الذي يعيش فيه
الإنسان؟ أم أنك عميت عنها كيف تملأ الجو فرحة وسروراً
بجديتها؛ ذلك البلسمي الهادئ اللطيف.





إني لأراها ترى.. وأسمعها تتحدث.. وأراها تسمع دون أن أرى لها أذنًا، أراها وأظل أشاهدها مع أخواتها ذوات الألوان الخلابية، ويزيدهن سحرًا تلك الخلفية الخضراء كأنها مهدهن، وكأنها أمهن، وكأنهن فتيات صغار يرتدين ثيابهن من فساتين زاهية الألوان من الأحمر والأصفر والوردي.

كأن اليوم عيد، ولونها هو لون فستانها الجديد، وهي ترح به مرحًا.. وحديثهما حديث صغار فيه صدق وبراءة وفيه هدى المنار . ومثلهن مثال للصمود والتحمل مع الأمل والابتسام، مثال من لا يعبأ إلا بالأمل ويضرب بغيره عرض الحائط، فهم أسرى الجذور القاسية.. هم سجناء الطبيعة، ومع ذلك فهنّ يرقصن ويتميلن استجابة للنسيم الهادئ ويبثن الجمال حتى يطفح على الإنسان من حولهن فيُسعده. وهم -مع ذلك- للجميع، للأحياء قاطبة.. دون مقابل، دون مقابل في زمن قد جاء، ذلك الزمن الذي نبتاع فيه الماء وندفع لقضاء الحاجة!



أرى تقلب نظراتهن في السماء يتأملن الطيور المحلقة،
ويتمنّون لو لم يكنَّ أسرى لصنعن صنيعها، ولحلّقن بفساتينهن
الملونة، ولأخذن السماء بطولها وعرضها تغريدًا وتهليلًا! تدور
إحدهن بأحمرها الخاطف للعين حتى تكاد العين تجحظ،
وأصفرها الذي تبرزه الخضرة فيلمع كأنه البرق، ووردئها الذي تعجز
كلماتي عن وصفه.

وعلى جانبهم ماء النهر الأزرق الرقاق.. بأواجه المتراقصة في
رقة وبكل ثقة، يبدو فضيًّا حينما ترسل الشمس عليه أشعتها
الذهبية، حينها تسمع ضحكات الزهور حمراء وبنفسجية، فيرد
عليها الماء بنسيمه الهادئ الجميل، وهذا الأبيض (أبو قردان)
يستمتع بهذا كله، فتراه في الماء حينًا، وفي الخضرة حينًا آخر.

يا حبذا لو أعيش معكم! سأكون صديقة وفية، ماذا لو
تقبلوني عليكم طارئة، ولكنني عاشقة. حسنا، لقد أعددت
الخطة المحكمة، سأرافق هذا الأبيض وأتخذه صديقًا لي بدايةً، وبه
سأبتغي إليكم الوسيلة.





ويا حبذا لو تقرضني جناحيك هنيهة صديقي، فقط يا صديقي
هنيهة! فأرفرف بهما فوق هذه الجنان، ولن أرى حينها إلا جمالاً،
ولن أسمع حينها إلا تسبيحاً لله .. سبحانك اللهم!

أي جنة هذه في أرض الله، تُرى كيف -إذًا- جنة الآخرة؟

-اضربي الجرس يا آنسة، اضربي الجرس يا أخت أريد النزول،
انتظر أيها السائق، اضربي زر الجرس يا مدام، أجننت أم ما بك؟

-هاه! آسفة، وتباً لكم، لقد كنت في دنيا غير الدنيا، أتتهموني

بالجنون وأنا لم أنطق بشيء، ماذا لو حكيت؟!

تُرى كيف حال قارئ؟





الحق أننا لا نحتاج لا البِئسلين ولا السيفوتاكسيم، إننا بحاجة إلى
معجزة كمعجزة سليمان، ليست في لغة الطير بل في لغة الجرائم.



عوالم أخرى

كانت حرب صدفة، كانت وما زالت..

حرب شنتها الآدمي على عوالم أخرى، عوالم البكتيريا والفيروسات وغيرها، حرب عادلة، خصم آدمي ضخم ولكنه ضعيف، والخصم الآخر البكتيري أو الفيروسي دقيق ولكنه قوي ذكي مكار.

الحق أن الخصم الآدمي لا يحارب وحده بل ينضم إليه جيش حيواني ونباتي، أو بالأحرى البكتيريا والفيروسات وحتى الديدان الصغيرة من بلهارسيا وغيرها لا تحارب الإنسان وحده بل تحارب الحيوان والنبات أيضا .

تُرى لم الحرب؟ وعلام يتحاربون، على الأرض؟ أم على لا شيء؟
لست أدري.

فيينا آدميون يجبون السلام، فلم يحاربونهم ويحاربون أطفالهم،
يحاربون النظام الخلوي والنظام العصبي فيرفعون درجة حرارتهم



ويؤلمون الصغار قبل الكبار يؤلمونهم حد الصراخ بالالتهاب في كل مكان، وفي أقرب فرصة، وبكل سهولة.

يبدو أنني سلمية كذلك حتى أنه جال بفكري عقد معاهدة سلام، هم يرون أننا نصنع المضادات لهم، ويعرفون جيداً كيف يتفادونها فيغيرون من تركيبهم حتى لا تؤذيهم فيما يعرف في الطب ب (Resistance) المقاومة..

الحكاية بدأت من هنا، بدأت صدفة.. في عام ١٩٢٨ تمكن العالم الاسكتلندي فليمينغ من اكتشاف أول مضاد حيوي (البنسلين) بالصدفة.. نعم، لذا فهي حرب صدفة.

كان فليمينغ يعلم بأمر عالم البكتيريا حوله، هو يعلم وجودها ولكن لا ضرر ولا ضرار.

ذات يوم قام الاسكتلندي بعمل مزرعة بكتيريا ولاحظ عند تعرضها للهواء أن البكتيريا تذوب حول الفطريات، فاستنتج وجود مادة تؤدي إلى قتل البكتيريا العنقودية خاصة، واستنتج أن العفن





يفرز مادة تهلك الجراثيم وهذه المادة لا تضر بالإنسان ولا الحيوان وأطلق عليها اسم (البنسلين) أي (العقار المستخلص من العفونة).

لا بد أن المجموعة التي تعرضت للعقار لم تمت جميعها، لقد كان الاكتشاف مجرد صدفة، ولا بد أنهم حزنوا كثيرًا على وفاة إخوتهم فسرعان ما أخبروا القوم بأمر (البنسلين).. لا بد أن القوم أعدوا لنا العدة حقا!

كان موت قطيع البكتيريا صدمة لهم، ولكن الفاجعة الكبرى كانت عام ١٩٤١م.

نشر فليمينغ نتائج أبحاثه عام ١٩٢٩ إلا أنه لم يهتم بها أحد في بادئ الأمر، رغم منشوره الذي قال فيه إن هذا الاكتشاف من الممكن جدًا أن تكون له فوائد طبية عظيمة. توقف عمله هنا ولم يستطع ابتكار طريقة لاستخلاص هذه المادة أو تنقيتها، ولم يستفد أحد من هذا العقار السحري لمدة عشر سنوات.



لا بد أن العالم البكتيري كان يأخذ بالثأر في هذه الأعوام قدر ما فقدوا وزادوا، غنيمة باردة.. ولكنهم فُجعوا بقدوم الباحثين البريطانيين (هوارد) و (فلوري). أعاد الاثنان نفس التجارب وقاما بتجريب هذه المادة على حيوانات المعمل.

وفي عام ١٩٤١م استخدما البنسلين على المرضى لأول مرة، وأثبتوا أنه عقار في غاية الأهمية حقًا. لقد كان أول إنسان يستخدم البنسلين هو رجل شرطة إنجليزي، كان يعاني تسممًا في الدم، ولكنه لم يتماثل للشفاء لعدم وجود كميات كافية من العقار الجديد في ذلك الوقت، كما تم استخدامه أيضا في علاج جرحى الحرب العالمية الثانية.. يا لها من حروب! كلها حروب إما بين أبناء الجنس الواحد، وإما بين أبناء الجنس وعوالم أخرى!

هكذا كانت الفاجعة :

-يا قائد الكوليرا، إنهم يغزوننا بعقارهم الجديد، وقد أوشكوا القضاء على الجبهة العنقودية لدينا!. هكذا قالت بكتيريا الدرن.





-قتلوهم وقتلوا صديقي الذي كان ضابطا بالعنقودية، والله لنجهز عليهم جميعاً، والله لئبيدهم حق إبادة. قالها قائد الكوليرا في غضب شديد .

-أبشروا لقد أعلمتنا الجواسيس بتركيب العقار وقد قام معمل المدينة بتجهيز رداء لكل منا يحميه من هذا العقار. قالتها إحدى الجنود الجرثومية للقائد.

إنها المقاومة فيما يعرف بـ (Resistance)

-أي جواسيس استعنتم بها هذه المرة؟

-أسلافنا يا سيدي، أسلافنا الذين لا يؤذونهم ويعيشون معهم ومع أجسادهم وهم يحبونهم ويحترمونهم ولن يشكوا أبداً في تجسسهم، حتى أنهم يسمون علاقتهم بهم بالعلاقة التبادلية لأن أسلافنا كثيراً ما يحمونهم من بعض الأمراض.

فهقه القائد بضحكة دوت في مدينته حتى أنها أيقظت صغار الجراثيم من نومهم:



-عظيم! قالها بكل فخر، وبدأ يضحك ثانية ويقلب كفيه،
ويبدو أنه يخطط لأمر ما.

ثم أفصح عن نواياه قائلاً :

-سنبعث اليوم برسالة إلى قائد الفيروسات ونطلب منه مددًا
من ال (آتش آي في)، سنهلككم يا آدميين عن بكرة أبيكم!

-ماذا يا سيدي؟ (إتش آي في) ولماذا كتيبة الإتش الفيروسية
بالذات؟(HIV; AIDS)

-حسنًا، طائفة الفيروسات هي أقرب طائفة لنا منذ القدم ونحن
على درب واحد، ربما لأن لغتنا أقرب لبعضنا بعضًا عن غيرنا،
ونحن أقرب لهم من أي كائن آخر. هم دائما ما يجبون أجهزة معينة
من أجهزة الآدمي، تاريخهم يشي ببطولات عن إجهازهم على
التنفس الآدمي، فدائما ما يختارون منطقة التنفس ويدمرونها،
فيمنعون دخول الأكسجين إليهم، ويدرسون أساليب متقدمة



لأجيالهم في مدارسهم، وعلمائهم يطورون دائماً التكوين الجيني
للأبناء جنسهم.

أما عن كتيبة الاثش فلها تاريخ مع البشرية، تاريخ قديم قدم
كوكبهم، الاثش لهم القدرة على إبادة جهازهم المناعي، وتحويل
أسلافنا النافعين لهم لحقيقة أصلهم البكتيري فيؤذونهم، الاثش
سيسبب لهم ما سيسمونه بالإيدز، أتدري لماذا أعلم بهذا الأمر؟
لأنني أعلم لغتهم جيداً، وهي تعني بلغتهم مرض نقص المناعة
المميت.

ثم قهقه بصوت عالٍ جداً هذه المرة.

سنلاعبهم اليوم بالزهري والدفترية والسل وبمزيد من الكوليرا
إلى أن يأتي الاثش لخدمتنا... وقد حدث ما حدث، في الخامس من
يونيو في عام ١٩٨١ قدمت وكالة مراكز مكافحة الأمراض والوقاية
منها في الولايات المتحدة بياناً بالآتي :



-«لقد تم حصر عددٍ من حالات الإصابة بالالتهاب الرئوي
المصاحب لما يسمى المُتكيسة الجُجُوية وذلك في خمسة رجال من
المثليين جنسياً في مدينة لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا»
وفي نشرة وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم، نشرت عالمة
الفيروسات الفرنسية مارتين بيترز نتائج أبحاث تحمل الآتي:

-«بعد البحث في النماذج الجينية من قرود الغوريلا
والشمبانزي التي حصل عليها الباحثون من الكاميرون والجابون
وأوغندا، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، توصل فريق علمي دولي
إلى أن مصدر اثنتين من السلالات الأربع للفيروس المسبب لمرض
الإيدز يعود إلى قرود الغوريلا في جنوب غربي الكاميرون»

والمعلومات الجديدة بالولايات المتحدة كانت تقول بأن
الباحثين باتوا يعرفون مصادر كل سلالات فيروس فقدان المناعة
المكتسب HIV الذي يصيب البشر.



وأن للإتش آي في أربع سلالات م ، ن ، و ، ب وكان معروفًا أنّ سلالتي م ، ن مصدرهما قرود الشمبانزي، ولكن لم يعرف أحد مصدر السلالتين الأخيرتين حتى الآن.

ولم تر البشرية مرضًا أقدر من مرض الإيدز حتى الآن، قذارته تكمن في تعجيز جيش المناعة لدى البشرية، وهو خط الدفاع القوي المثالي الدقيق، وهو خط الدفاع الأول والأوحد في كائن البشر.

ثم في عام ٢٠٢٠ جاءوا بجيوش الكورونا من فئة الفيروسات هادين إلى القضاء على العالم أجمع.

الحق أنى استنتجت سبب مجيء المقاومة وسبب مجيء الإيدز، كان الاسكتلندي والبنسلين سبب مقاومتهم، وكانا هوارد وفلوري هما من نشرا البنسلين في العالم، فجاءوا بالإيدز ولاعبونا بالجديري والدفتريا والسل وغيرهما، ولكن جاءوا بكورونا هذه المرة لماذا؟



لا أحد يدري.. وليت شعري ما ذنب ضحايا السل والجذري
والدفترية وغيرهم؟!..

ولكن يبدو أنهم مسخرون فما إن ظهر الإيدز كان بدايته في
(مثليين) من كاليفورنيا وهذا غير مقبول في أي دين من الأديان.

هل هذا يعني أن العالم الجرثومي ليس سيء للغاية؟! أم يبدو
أنه مسخر فقط، أم يبدو أنه يجب الحرب ويجب الانتصار ليس
إلا؟!!

لا بد أن مكتباتهم تمتلئ كُتُبًا بعنوان «علم الإنسان ..

«humanology

بالضبط كما تمتلئ مكتبة الجامعات الطبية بالكتب التي
عنوانها «علم الأحياء الدقيقة» microbiology .. لِمَ لا نعقد
معاهدة سلام بيننا وبينهم؟ على ألا يكون هناك سل ولا دفترية
ولا إيدز ولا كورونا، وعلى ألا يكون هناك بنسلين ولا
ميسيسلين؟

لَمْ لَا نَعْقِدُ مَعَاهِدَةَ سَلَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبِكْتِيرِيَا وَالْفَيروسَاتِ، فَلَا تَمْتَلِئُ مَكْتَبَاتُهُمْ وَلَا تَمْتَلِئُ مَكْتَبَاتُنَا بِكُتُبِ هَدَفِهَا الْحَرْبُ؟ لَمْ لَا نَعْقِدُ مَعَاهِدَةَ سَلَامٍ وَمَنْ ثَمَّ نَحْذِفُ نِصْفَ أَمْرَاضِ الطَّبِّ لَدِينَا وَوَلَدِيهِمْ؟ فِيهِنَّ طَالِبُ الطَّبِّ الْآدِمِي وَالْجُرْثُومِي وَيُنْهِي دِرَاسَتَهُ فِي ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ أَوْ أَرْبَعٍ !

لَا ضَعْفًا مِثْلًا بَلْ حُبًّا فِي السَّلَامِ! وَحُبًّا فِي تَبَادُلِ النِّفْعِ، لَا بَدَأَ الْكَائِنُ الضَّئِيلُ يَحْتَاجُ لِحِجْسِ الضَّخْمِ، وَالْكَائِنُ الضَّخْمُ يَحْتَاجُ لِعَقْلِ الضَّئِيلِ .

الْحَقُّ أَنَّنَا لَا نَحْتَاجُ لَا الْبَنْسَلِينَ وَلَا السِّيفُوتَاكْسِيمَ، إِنَّنَا بِحَاجَةٍ إِلَى مَعْجِزَةٍ كَمَعْجِزَةِ سَلِيمَانَ، لَيْسَتْ فِي لُغَةِ الطَّيْرِ، بَلْ فِي لُغَةِ الْجِرَائِمِ.

إِنَّهَا كَائِنَاتٌ لَا تُرَى إِلَّا تَحْتَ الْمَجْهَرِ، وَبِقُدْرَتِهَا تَفْعَلُ الْأَفَاعِيلَ بِالْحِجْسِ الْبَشَرِيِّ، وَمَا هِيَ إِلَّا خَلَايَا تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَفْعَلُ مَا تَشَاءُ وَلَا نَرَاهَا وَهِيَ بَدَاخِلُنَا فِي الْأَمْعَاءِ وَالْحَلْقِ وَالْكَبِدِ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ.. مَنْ





يدري، قد نكتشف يوماً أننا الآدميون بكتيريا نحارب كائنات أكبر، لا نُعد نحن إلا خلايا منها، وربما الآدمي ما هو إلا خلية في كوكبه، وما الأرض إلا خلية في المجرة، وما المجرة إلا خلية في الكون، وما الكون إلا خلية في غيره، وكل خلية قد تكون أقدر وأذكى مما يحويها.

وكما كانت البكتيريا والفيروسات جرائم الإنسان، ربما نكون نحن جرائم الأرض، وما الأرض إلا جرثومة في الكون، وقد تكون العلاقة علاقة منفعة، وقد تكون علاقة ضرر، ألم نثقب الأوزون بعد؟!





وأخذ الإنسان يَكْبُرُ.. ينمو ويتزعرع..

على حساب لحوم الحيوان، وأوراق وسيقان النبات!





الله

-قل لي، هل تحب «جاك سميث»، الرجل الأجنبي «جاك

سميث»؟

-أنا لا أعرفه.

-فقط أخبرني إن كنت تحبه أم لا !

-كيف وأنا لا أعرفه؟!

-عزيزي ولن تعرفه لأنه غير موجود أصلاً! لا أحد يُدعى

«جاك سميث» وإن كان الاسم مألوفًا.. آسفة حقًا.

سألني أحدهم يومًا ما.. كيف أحب الله؟ أجبت بما أملاه عليّ

القلب، وبما يصدقه العقل..

أجبتة -بعد أن أحببت السؤال- بأن عليه أن يعرفه أولاً، عليه

أن يعرف الله جيدًا حينها فقط سيحدد قلبه هل يحب الله أم لا؟

فلا يمكن لشخص أن يحب أحدًا دون أن يعرفه، ولا بد أن يعرفه

جيدًا حتى يجب بحق... والنفس القويمة لا تحب لمجرد الاسم، ولا



تحب الحجم، ولا الشكل، النفس القويمة تحب الشخص ذاته،
وروحه، وفكره، النفس القويمة دائماً وأبداً ما تحب الخلق، تحب
الفطرة وتحب الحب.

لو تسمح لي، سأخذ بيدك قليلاً لترى من هو الله، لن ترى
ببصرك بل ببصيرتك.. واعلم أنني صادقة هذه المرة، سأعرفك بمن
هو الله الحقيقي الموجود لا ب «جاك سميث» أحد مؤلفاتي.

بدايةً.. العقل البشري هو هبة مميزة للإنسان ميزه الله بها عن
كل كائنات الأرض، لقد أعطى الله الحيوان نظاماً حيويًا قد لا
يختلف كثيراً عن الإنسان.. أعطاه بصراً، ولم يعطه بصيرة، أعطاه
جسداً ولم يعطه حُسن التقويم، أعطاه دماغاً ولم يعطه عقلاً.

ووهب الإنسان البصرَ والبصيرةَ، الجسدَ وحسنَ التقويم،
الدماغَ والعقلَ.. لا ظلمًا منه جلّ وعلا بل عدل من العادل. وخلق
النبات لا على نظام حيوية الإنسان ولا الحيوان، ولكن خلقه كائن



يتنفس ويتغذى ويتزوج ويُنجب ويموت تمامًا كالإنسان والحيوان
إلا أنه بلا حركة بلا إرادة بلا دماغ أو عقل.

ثم جعل الإنسان خليفة له في أرضه حتى وإن كان نزوله للأرض
عقابًا.. وأخذ الإنسان يكبر.. ينمو ويتعرع على حساب لحوم
الحيوان وأوراق وسيقان النبات.

ثم بعد كل هذا يأتي أحدهم ويقول: تقولون أن الله يفعل ما
يريد، إذًا فلو أن الله أرادني عابده لكنت! ثم يكمل حديثه
مستهزئًا، ولكن يبدو أن إلهكم لم يرد!

ثم يأتي شخص آخر عابد للحيوان أو للنبات، ويقول كيف
تأكلون آلهتنا، تبا لكم!

يقول تبا لكم، وهو طبيب بشري لا يلبث أن يقول كلمته هذه
ثم يذهب لعيادته ليقابل مريضًا يعاني من ضعف شديد وفقدان
شهية وشعور بالألم في الساق وحُمى، وشعور بالتعب دون سبب.





فيعلم الطبيب سبب علته وشكواه بكل هذه الأعراض
ويخبره بأنه مصاب بالإسقربوط. فيسأله المريض: وما سببه يا
دكتور؟ فيرد بكل بساطة: نقص في فيتامين سي.. بالطبع لن يخبره
بأن الخضراوات غنية بفيتامين سي وأن مرضه نتيجة لسوء تغذية
ويبدو أنه لا يأكل كمية كافية من الخضراوات.

بالطبع لن يفعل، بل سيعطيه قرصًا أو قرصين من الفيتامين
الصناعي الذي صنعه الإنسان ليأتيه المريض بعد أسبوع أو أقل
بآثار جانبية بالغة لا تفعلها الخضراوات مهما أكل منها.

ثم يخرج المريض الأول ويدخل المريض الثاني، ويُخبر الطبيب
بعلته:

أعاني نقصًا حادًا في الوزن، ومشاكل في عملية الهضم، وألمًا
حادًا بالمعدة وآلامًا في الصدر.



يطلب الطبيب تحاليل دم معينة، ويطلب أخذ عينة من داخل جدار المعدة والأمعاء لتحليلها ميكروسكوبياً، ثم يجيء المريض بالتقرير الطبي الذي ينص على :

هناك تغيير في تركيب جدار المعدة ويبدو أنه أدى إلى خلل في عملية التمثيل الغذائي تسببت في تغير جذري في تركيب المواد الغذائية التي يتناولها الشخص والتي أدت إلى انخفاض الوزن وبدل فحص الخلايا الميكروسكوبي على موت بعض خلايا الأمعاء والذي أدى بدوره إلى سوء الهضم وقرحة المعدة وهو غالباً نتيجة نقص البروتينات والمعادن، وهذا أيضا يؤدي إلى قصور في عمل القلب وأمراض أخرى مزمنة.

ثم في آخر التقرير الورقي مكتوب التشخيص المبدئي الذي لن يشك فيه الطبيب بأعراض كهذه، مكتوب؛ غالباً المريض يعاني نقص فيتامين ب ١٢ (الفيتامين الموجود في اللحوم والدجاج بكثرة). ويصبح حاله كحال المريض الأول، أقراص... صناعية، ثم أسبوع، ثم آثار جانبية.





ثم يأتي واحدٌ من شهود (يهوه) وهي ديانة تنص عقيدتها على
تحريم نقل الدم، لا يؤمن أحدهم بالطب ولا بالمعالجة الطبية.. شهود
يهوه يرون أن الإيمان يشفي المريض من مرضه، ولكن يذهبون
أحياناً للطبيب.. فإن احتاج نقل دم يرفض المريض العلاج
ويرفضون أهله مثله، وهو ما يؤدي إلى موت عدد كبير من الشهود
بمن فيهم الأطفال.. نتيجة لهذا الاعتقاد من تحريم نقل الدم، ومن
ثم الموت بهبوط حاد في الدورة الدموية.

ثم يأتي عابد للتماثيل ليقول :

-واللات والعزى لقد أحسنت الاختيار، أنا آكل اللحم
والنبات وأؤمن بالطب فلا تُحَرِّم تماثيلنا نقل الدماء. يا للغباء! وهل
هي حرمت شيئاً من قبل، وهل هي فرضت شيئاً آخر سوى تقديم
القرابين، وما فرضتها بل أنتم فرضتموها على أنفسكم!

وإذا سألت أحدهم يوماً :



-وماذا فعلت تماثيلكم عندما سمعت بوجود الله وماذا كان رد فعلها؟ أجيبي ماذا فعلت، وماذا قالت؟. يرد وبكل براءة :

-هي فقط غضبت ولم تقل شيئاً، هي لا تقل ولا تسمع ولا تفعل.

-وكيف غضبت؟

يضع سبابته على موضع غمازته غير الموجودة ويقول :

-لم تشم أرضنا رائحة المطر حينها نعلم أن آلهتنا غاضبة.

وكعادتنا في عرض القضايا وكعادتنا في التفكير، نحن لا نثبت

الحق بإثبات استبداد خصمه، بل نثبت الحق بذاته.

لذا.. آخرًا وأخيرًا.. مَنْ هو الله؟

هو الذي خلقك في ظلمات ثلاث ثم جاء بك إلى نور الدنيا، لا

لتملأها خرابًا بل عمارًا تنعم فيه بخيراتها وينعم أحفادك من

بعدك... هناك قوم يرون أن مصائب الدنيا أكثر من نعم الله عليهم،

وما يدرون أن المصائب ما هي إلا زوال للنعم. ما يدرون أن النعم





لا تُدرك إلا بالمصائب.. تُدرك النعم بزوالها، فمصائبهم زوالٌ ليس
إِلَّا! نعمته عليك منذ أن التقطت رثائك هواء الأرض لأول مرة ثم
بدأت تتنفس كإنسان طبيعي بكل سهولة بعد أول نفس.. إنها
لنعمة.

ومنذ أن كنت صغيرًا لا تبلغ من عمرك إلا أيامًا وأشهر.. في
أول شهر يعلم احتياجاتك الغذائية، يعلم أنك في هذه المرحلة
العمرية أكثر ما يمكن أن تكون بحاجة إلى البروتين فيجعل
حليب الأم الطبيعي مليئًا بالبروتين أكثر من أي عنصر آخر.

ثم بعد أشهر يعلم أنك في مرحلة أشد ما تعوز للفيتامينات
والمعادن فيستبدل ببعض البروتين المعادن، وبالبعض الآخر
الفيتامين.

وفي كل المراحل السابقة يمدك بمضاد حيوي طبيعي يُسكب في
حليب الأم بإرادة الله، فيحميك من أمراض شتى، وغيره وغيره مما
لا يعرفه الطب بعد.



ورغم نزول الأرض ورغم اعتبار النزول عقابًا ورغم كل النعم،
يوجهنا لكل وجهة تقربنا من الجنان خطوة، وكأنه جل في علاه لا
يريد لنا إلا الجنان، يقربنا منها بكلمة وبشعور!

يقربنا من الجنان احتياليًا بكلمات ذكر تقال فتزيدنا حسنات،
ويدخلنا الفراديس بشعور إيمان به ليس إلا.. بقول قبل الموت
يتمثل في جملة (لا إله إلا هو).

ومن أقوال رسول الله ﷺ في ذلك:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ
وَجْهَ اللَّهِ». (رواه البخاري ومسلم).

وفي حديث آخر:

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ
أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا م حَرْفٌ وَمِيمٌ
حَرْفٌ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وقال أيضًا: «أَلَا أُخِيرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ» أي حليم، حسن الخلق.
(رواه أحمد- حديث صحيح)

«لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».
(صحيح مسلم)

وقال:

«إِذَا لَقِي أَحَدَكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجْرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ» (رواه أبو داود- حديث صحيح).

أليس هو ربّ؟ أليس الربّ بمرّب؟ هكذا يعرف الله لهو عباده فيقربهم منه ومن جنانه بأسهل الكلمات والأفعال، حبًّا في عمارة الأرض وحبًّا في أن يُعيد الإنسان إلى جنانه إلى مهد آدميته إلى مقر أبيه آدم .





هو الذي يعلم أننا نحبه ونعظمه حد الحلف به فيقول :

«لا تجعلوا الله غرضاً لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين

الناس، والله سميع عليم» سورة البقرة (٢٢٤).

أي لا تجعلوا من حلفكم بي سبباً وحجة تمنعكم عن البر والتقوى والصلح بين الناس، وكأنه يقول أنا أسامح في الرجوع عن الحلف بي لو أن هذا الرجوع سيجعلكم تبروا وتتقوا وتصلحوا أو تتصلحوا.

ثم يأتي أخيراً ليرد على كل تمثال على كل صنم على كل حيوان ونبات يُعبد وعلى اللا شيء من أصحاب اللا ديانات قائلًا في معجزة القرآن العربي:

«إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» سورة

طه (١٤).





ماذا قال التمثال والصنم، ماذا قالت البقرة وماذا قال اللا شيء،
ألم يكن من الأولى حماية ألوهيتهم ولو برد كهذا كي يأمنهم
العابدون على حماية أنفسهم؟.

يا لخسارة عقلٍ في دماغٍ يَعْبُدُ دماغًا بلا عقل.





فهو كَمَالٌ

لا ينقصه إلا النقصان!

لماذا نمرض؟

في عام ١٩٧٢ لاحظ رئيس محطة الإطفاء بولاية كاليفورنيا الأمريكية بأن هناك مصباحًا كهربيًا يعمل منذ فترة كبيرة منذ أن تولى رئاسة المحطة.

ولما سأل عن هذا المصباح أخبروه بأنه يعمل منذ ١٩٠١ أي من واحد وسبعين عامًا! والأغرب من ذلك أن المصباح لم يحدث له شيء حتى بعد مائة عام أخرى، ففي عام ٢٠٠١ احتفلوا بعيد ميلاد المصباح الذي أكمل المائة عام وزاد عليها!

كان حفلًا صغيرًا إلا أنه لم يُتوقع أن يحضره رجال الشرطة وكبار رجال الدولة في هذا الوقت، وقد كان المصباح مصنوعًا منذ عام ١٨٩٥ على يد (أدولف شاليه) والذي قام بتصميم المصباح بطريقة تجعله لا يتلف أبدًا .

لماذا لم نكن كالمصباح، ولا نتلف؟! كيف نمرض وقد خلقنا أحسنُ الخالقين؟ لماذا تتلف أعضاؤنا بسهولة هكذا بأقل الأشياء



تأثيرًا عليها وقد صنعها الله أجلّ الصانعين؟! أيجلّق الإنسان ضعيفًا
إلى هذا الحد؟! تساؤلات لطالما حدّثتك خلالها خلايا عقلك عنها
وتداولتها الأفكار فلا بد لها من إجابة .

ولكن قبل الإجابة سأواصل حكاية المصباح :

تضررت كبرى الشركات من فكرة بقاء المصباح لفترة طويلة
دون تلف، فكيف ستنتج ومن سيبتاع؟ وأعدت العدة وأخذت
تبحث ابتغاء سبيل صناعة مصابيح تزول بسرعة فعملت على زوال
الأشياء بعد فترة من استخدامها فيما يُعرف بتخطيط الزوال.. ولهذا
تتلف الأشياء بسرعة جهاز المحمول، التلفاز، الكمبيوتر، وكل
أجهزة المنزل.

ولكن ما لنا والأشياء وما لنا بالأجهزة، نحن أرقى وأقوم وقد
خلقنا الله، ألسنا مجديرين بآلّا نُزال! أتحسب أن الله جلّ علاه لم
يكن قادرًا على خلقنا بجسد لا يمرض ولا يعتل.. أم تحسب أن
المرض نقصان؟ أتحسب أن المرض علة؟! وما يعتل العليل، المرض



سمة الكمال .. لا في المخلوق بل كمال في الخالق.. سمة كمال في الصانع. فإن كان الكمال صحة، فكيف يُدرك؟! لا يُدرك الكمال بالكمال، إنما يُدرك الكمال بالمرض! فإن كان المرض.. ما كان ليذل على نقصان، أو تلف، أو سوء صناعة! إنه لتخطيط زوال من نوع آخر، نوع متقدم.

إن المرض لحدث يدل على عظمة الخالق، فالخلق إن حسبتهم يوماً صنعاً، فما أعظم الصنع يصنعه خالقه ويحدد عمره الزمني.. بمرض! أليس في هذا قمة الدقة والإحكام، أليس في هذا أكمل الكمال؟! بلى.. فهو كمال لا ينقصه إلا النقصان.

وإنه لمن العجيب أن يحدث المرض بمسبب حي آخر، ليس كل مرض تلقاً وإن كان -يوماً- تلقاً فإنما هو في حقيقته حدث نتيجة لنشاط خلق آخر صغير أرسله الله.. خلق أصغر من الإنسان حجماً يُحدث فيه أمراضاً شتى، مخلوق يُمرض مخلوقاً.. فأين النقص؟!!



وإنه لمن العجب العجاب أن يكون المخلوق كائنًا لا تراه عين إنسان مجردة، فيُحدث فيه أبشع الأمراض ويُغيّر في تركيب جسده وقد يسبب له مشكلة تُفسد عليه توازنه العام، مشكلة يحدد كنهها الكائن الجرثومي أو الفيروسي، وتحددها مجرد نوع وفصيلة من كل منهما. مشكلة تُفقدك صوابك، وقد تجعلك تجن الماء، وتجرك الآلام أحيانًا قبل أن تنفيك من الحياة الدنيا.

نعم كل هذا بسبب مخلوق.. خلقه الخالق! مخلوق ميكروسكوبي صغير دخل أيضًا في قانون تخطيط الزوال، فيزول هو ويكون سببًا في زوال جنس آخر.. حتى الجنس الآدمي الآخر يشترك في تخطيط الزوال دون أن يدري، فهو يصنع المضادات الحيوية ويقطع الأشجار ويخرّب الغابات فيهلك كثير من الحيوانات، ويصطاد الطيور فينقرض منها ما ينقرض.

لذا ما كان المرض ليكون بعلة، قد يكون إعلانًا صريحًا عن قدرة الخالق.. وقد يكون جزاءً للبعد عن الخالق، قد يكون اختبارًا لإيمان صاحبه، وقد يكون تكفيرًا للذنوب.





حينها يُخرجون الحب من آبار الأسرار..

ذلك الحب الموجود وغير الموجود، موجود لكنه مخفي وغير موجود
لأن لا أحد به يبوح! يخفونه كمن يؤجل المدح للثراء.. يا للغباء! لا
تخفوه، اللهم بغلت.. اللهم فاشهد.



آبائي الأعزاء

إلى آباء أعزاء، عن أبناء أبرياء..

علموهم أن المعنى ليس كالمادة وأن المعنى أعظم وأغلى من المادة، وأن المعنى مستحيل أن يستحيلَ لمادة، واعلموا -أنتم- أن المسؤولية الأبوية ليست مجرد توفير مأكَل ومشرب، إنها أعظم من ذلك؛ هي مسؤولية معنوية إنسانية قبل أن تكون مادية.

أيها الآباء -آباء المستقبل- لا تتعلموا العلم الجامعي أو غير الجامعي لتعملوا به وتجنوا الأموال وتفتحوا البيوت؛ أي تعلموا العلم لثعلموه وتعيشوا به، (فالناس موتى.. وأهل العلم أحياء).

تعلّموا لتتعاملوا، فيصح التعامل مع الأبناء وغير الأبناء، وأخيراً.. لتورثوه وتفتحوا به البيوت؛ فالابن العاق لا يمنعه المال ولا حب المال من أن يكون عاقاً، بل تمنعه التربية الحسنة والخلق الكريم. التربية التي تجعله يقرأ «وبالوالدين إحساناً» فيقرأ ويفهم وبها يعمل ويتعامل .



ثم لا تنتظروا مدرسةً خارج البيت، اجعلوا البيت مدرستهم
الابتدائية قبل الابتدائية الخارجية، فإن لم يكن البيت لهم مدرسة
لم يكن لهم أي مكان آخر. إن لم يكن المهدي سليماً أيعقل أن
يسلم اللحد؟ ربما، ولكن حتماً سيصبح شيئاً ما على غير كماله.

أفصحوا لهم عن معنى القوة وعن معنى التسامح الحقيقي
فليكونوا أقوياء متسامحين ومسامحين، معتدلين وعادلين دائماً في
دنياهم تماماً كدينهم.. كدين يصفح ويسامح.. يشرع ويعاقب
ويعطي كل ذي حق حقه، وتساهلوا في التعبير عن الحب أيما
تساهل، فليبح الأب عن حبه لولده ولا بنته بوحاً.. يُلاعبهما
ويُلاعبهما على حد سواء، وفي كل فرصة أتاحها الزمن يقول لهم :

-أحبك يا بني، أحبك يا ابنتي. لا تحفظوا الحب بينكم
كالأسرار ولا تصلوا بها إلى الآبار.. انطقوا به ولا تجعلوه سجين
الأسنة وأسير القلوب لتنقذه الأحبار.



أحبوهم وأخبروهم وعلموهم أن يفصحوا ويوحوا، فإن مجتم
أنتم أيها الآباء، باحوا هم، وانثروا عبير الحب في أجواء البيت؛ فإن
نثرتم.. ما رأيتم مظهر الجدل بين الأخوة الصغار وغير الصغار.

لقطة تتكرر كل دقائق أو كل ثوان.. أو مقطع تشاهد فيه تشابك
الأيدي بالرؤوس أو بالأحرى تشابك الأيدي بخصلات الشعر غير
الحريرية.. بشدة، ثم تبدأ المباراة ليقول أحدهما اتركني وسأتركك،
فيرد الآخر بنفس الكلمات.. تشاهد المباراة بكل حماس وكأنها
مبارزة تلفازية دولية، تحاول جاهدًا توقع الأحداث وأهمها من
سيُفك يده أولاً، وإن كان عليك المحاولة بإنهاء العراك اعتبارًا
بأنك الأكبر.. والأعقل، ثم لا تلبث أن تشعر أن الأمر يزداد سوءًا
وأن عليك التدخل وإلا سيحدث نهر الدماء حتمًا، تجيء الأم
بصرخات قائلة :

-عندما يأتي أبوكم سأخبره بكل ما حدث منكم في يومكم

هذا .



وهي تدري أن هذا يحدث كل يوم وسيحدث في كرة أخرى اليوم، فما إن تقل كلمتها يترك الاثنان بعضهما بعضًا.

يا للخسارة كانت مبارزة جيدة وددت لو أعرف من سيفوز وحاولت التوقع جاهدة.. لكن لا بأس بعد خمس دقائق من الآن ستبدأ المبارزة من جديد.. وهكذا دواليك.

هكذا إلى أن يحدث شيء بالبيت غير معتاد، أو فراق غير متوقع، أو ذهاب أبدي أو غير أبدي، حينها يُخرجوا الحب من آبار الأسرار.. ذلك الحب الموجود وغير الموجود، موجود لكنه مخفي وغير موجود لأن لا أحد به يبوح! يخفونه كمن يؤجل المدح للرائء.. يا للغباء! لا تخفوه، اللهم بغلت.. اللهم فاشهد.

واعلموا أن الحب والخوف لا يجتمعان، الخوف الذي يجلبه الضرب أو الشعور بسيطرة! أحبوا أبناءكم ولا تخيفوهم، لأنه لا داعي للخوف فالمشوار طويل.. ولا داعي للخوف لأن للحب داعيًا.



ثم علموهم أن الخجل ليس كالحياء، وأن في الحياء حفظًا للنفس
وزينة للفتاة، وأن في الخجل ضياعًا للحقوق.

افصحوا لهم عن تعاليم دينهم، مشكلة أن لا يكون الأب عالمًا
بتعاليم دينه وبفقهه، ومعضلة لو كان عالما غير ناصح أو غير آبه.
ولتصعدوا بتعاليم دينكم في دنياكم كلما صعد الأطفال سلم
العمر، حينها سيحتاجون لتعاليم أكثر وأكبر، فلم يعودوا أطفالًا
كسابق عهدهم، ولكنهم أطفالكم دوما .

ولا تستعجلوا زيجاتهم.. فالفتاة منهم ذات الخمسة عشر سنة،
سرعان ما تبلغ سنها هذا حتى تصبح الواحدة منهم مسئولة عن
زوج ثم عن طفل بعد وقت ليس ببعيد، تراها وطفلها كطفلين
يتامى.. يتامى الأم إن كان الزوج صالحًا، وإن لم يكن فيتامى
الأبوين.. وينظر المجتمع المخبول إلى هذه الطفلة على أنها ربة
المنزل، أربة منزل هي أم منزل يرببها؟! وتظل بذات المنزل، وبنظرة
ربته منذ أن تتزوج إلى أن تنتقل إلى رحمة الله، إنها لنظرة تكاد
تُنقلني أنا -والله- إلى رحمة الله .



وما أدراك ما معنى كلمة ربة منزل في صعيد «جواني» كان أو
«براني»!

هم يرون أنا خُلِقنا لنتزوج! رؤية خاطئة حد أذنيها، إنا حقا
خُلِقنا لنتكاثر ونعمر الأرض، ولكن ليس تعميراً بهذه الطفلة في
هذا السن الصغير. خُلِقنا لتعلم بعد أن نتعلم، لُنُرِّي بعد أن نُرِّي.

الفتاة منهم لا تفقه شيئاً في عمرها هذا، لا تفقه سوى فرحة
الفرح والفرحة، ولقب العروس الذي طالما ناداها به أحد إخوتها
شعرت بالاهتمام، اهتمام الأهل والأصحاب ولقب لطالما قيل كأنما
قيل فيها الشُّعر وأحست بأنها ملكة اليوم والغد.. وما بعد الغد.

افسحوا لهم طريق الدنيا ليشقُّوه شقًّا، فيروا العالم ويكتشفوا
الخلق، يكتشفوهم صغاراً قبل أن يكبروا لأنهم حتماً
سيكتشفون عالمهم بطريقة ما. وعلموهم العلم النافع، والتخطيط
الجيد للمستقبل، لأبعد ما في المستقبل.. للأخرة، ذلك تخطيط أولي
الألباب.



ثم إياكم بتحديد العلم، العلم علم بأي شكل كان في أي مجال.. وليكن هدفهم هدف آبائهم، نتعلم العلم لتعلمه ولنتعامل به وأخيراً للعمل والمال .

وقبل أن يخرجوا للعالم وقبل أن يصطدموا بأفكار شتى، أخبروهم أننا لا نملك ذات الفكر ولا التفكير.. لا نملك ذات العقل ولا الرأي ولا حتى ذات القلب، فتشاجر وجهات نظرنا.. وتحدث المشكلة، فينشأ عراكٌ طفيفٌ أو غير طفيف، وإنه لحال الدنيا وحال الطبيعة الزلزالية البركانية، أخبروهم أن تفكيرهم هم ذاتهم يتغير كلما اختلف الليل والنهار، أعجيب على غيرهم أن يختلف تفكيره عنهم؟! وكل إنسان يرى الدنيا بعين دنياه هو ومن خلال تجاربه هو ..

فأحدهم يقول: لو امتنعنا عن الحلم نموت. وفي مدلول كلامه أن الحلم أكسجين حياته! والآخر يقول: احفظوا الحلم كحلم، لأنه إذا تحقق أصبح واقعاً.. والواقع مرير. فليروا الدنيا بعين الوسط، ويطلوا على أحداثها من خارج صندوق الحياة.



ثم لا تهلكوهم بهوس الكمال، فالكمال لله وحده، وما كان
النقص عيبًا، فأحيانًا ينم النقص عن جمال، جمال وضع معاييرهِ
الإنسان.. عن صبغة الميلانيين أتحدث.

فكلما نقصت كلما ابيضَّت الوجوه وازرقت الأعين واصفرت
خصلات الشعر وازدادت نعومة. علموهم أن الإنفاق حق، وأن
البر خير.. وأن لن ينالوا البرَّ حتى يُنفقوا مما يحبون، ومن أكثر ما
يجبون، ولا يأتي البر بالإنفاق بل البر يكمن في (مما يحبون).. نوع
من كبح الشهوات! ونوع من ابتغاء وسيلة لله، وبيع الأنفس
وابتياح الآخرة.

ثم لا تحمّلوهم فوق طاقتهم.. لا تلزموهم بتحقيق نجاح أنتم لم
تستطيعوا تحقيقه، بل ساعدوهم ووجهوهم فإن استطاعوا فخيرٌ،
ومتى تنبت مواهبهم اسقوها سلسبيلًا، وأينما زُرعت قدروها
تقديرًا. وعلموهم أن الضمير هو روح الإنسان فإن مات ماتت معه
نفسه، وإن نام فإن ذلك النوم لا يمنع المرء من ارتكاب الخطأ، إنه





فقط يمنعہ من الاستمتاع به وهو یرتکبه.. فلیحذروا، لا نوم ولا

موت!





ثم هكذا دواليك؛ حتى يأتي سيف المرض والاكتئاب،

وهكذا؛ حتى تأتي سهام الموت.

فلا يفيق إلا على صوت ربّه يسأله:

فيمَ أفنيتَ عمرك؟! فيصمت.

وماذا عساه أن يقول!



الوقت

يقول أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله:

«أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك
وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، لتوفير
وقت لمطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه»

الحق أني حاولت التخيل ويأبى العقل إلا الواقع، واقع دنياه
وحادثني عقلي مقهقها بكلمات يتساءل فيها، أحقا هو يسف
الكعك ويتحسّاه بالماء ويأبى الخبز لفرق الثواني ليوفرها في مطالعة
بعض من كتاب؟! ماله ابن العقل أهو طبيعي؟

الحق أنني لم أستطع الرد على خلايا المخيخ، ولكن سرعان ما
وقع النظر على كلمات أخرى قال فيها ابن عقيل :

إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني
عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حالة
راحتي، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره.



وما أن فرغت من كلماته حتى تذكرت أنه قال: (إني لا يحل لي).
ويأبى العقل التصديق، عقلي ذاك الذي يمرح بالساعات هنا وهناك.

العقل الباحث عن الحق وعن الحقيقة، ذلك الذي دائماً ما
يفعل الشيء ولا ينيهه إذا به يقرأ محتوى بعنوان *finish what*
you start «أنه ما بدأت» لكاتب أجنبي يتحدث فيه الكاتب في
مئات الصفحات عن «أنه ما بدأت» ولم يقرأ فيه جملة واحدة
لكاتبه يذكر فيها أنه يسف الكعك!

- فما بال ابن العقيل! مال ابن العقيل يحلل ويحرم ساعة هو

عليّ؟

هكذا صاح عقلي بي.

-أنا لم أستطع الرد ولكني أستطيع أن أحضر كتاب الدين
وأنظر فيه ربما أجد الجواب.

عقلي الذي استغرق ساعات في قراءة *finish what you*
start وكأنه قرأ كتب العالم أجمع لقراءته بضع ساعات؛ إذ به



يقرأ سطرًا في سنة الرسول ﷺ يقول: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» (السلسلة الصحيحة-الألباني)
ولو هلة لاحظت أن عمري ضاع في قراءة «أكمل ما بدأت»، لقد
كان من الأولى أن يقرأ:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

ثم قول الحسن البصري: (أنت أيام فإذا ذهب يومك قد ذهب
بعضك)؛ وما اليوم إلا ساعات فما العمر إلا دقائق تضيع تحت اسم
لهو وتغيير جو، أغير جو بعمرك؟

ما هي إلا دقائق! تظن أنك تلهو بمجرد دقائق، والدقائق أذكي
منك فسرعان ما تتحد لتفقد ساعات وتذهب الساعات لتفقدتها
أياماً ثم تكتشف أنك ما كنت تفقد إلا سنيناً وأعماراً.

لم يعد اللهو بالساعات بل أصبح بالأعمار حقاً في ظل الحرب
التكنولوجية التي شنها الإنسان ضد ذاته، يقتل وقته بنفسه، وترى
عيناه دماء العمر يسيحها الزمن، فلا يوقف الطعن بل يستأنف



القتال مجدداً ليري أبحر الدماء وكأن على رأسه الطير وكأن يده
مقيدة إلا للقتال، فتارة يقتل بسكين التسالي، وتارة تحت بند الفن
الأجنبي التمثيلي والهندي الدرامي، وتارة يشق الصدر بخنجر من
وسائل التواصل الاجتماعي.

ثم هكذا دواليك؛ حتى يأتي سيف المرض والاكتئاب، وهكذا
حتى تأتي سهام الموت فلا يفيق إلا على صوت ربّه يسأله: فيمَ أفنيتَ
عمرَك؟ فيصمت. وماذا عساه أن يقول! فيسأله تارة أخرى: فيمَ
أفنيتَ عمرَك؟ فيصمت. يصمت لا لأنه لا يدري ماذا يقول، بل
لأنه مرتاب خجلان أن يقول قضيته؛ فيما يسمى ب (الفيس بوك)
أو في الأفلام الدرامية.

فيخسر عمره ويخسر دنياه وآخرته.





صحيح؛ يعيش الفردُ مِنَّا ما يعيش،
فإن مات أحببناه!

الموت

أنا أعرفه جيّدًا هذا الكابوس، كثيرًا ما يحدث لي.. أصبح فيه عاجزة عن الحركة وأحاول التحدث ولا أستطيع، أحاول أن أنادي أمّاه! .. أختاه! ولكن لا لسان ينطق. أعرفه جيّدًا، وبعد ثوان يذهب الكابوس بعيدًا وأحمد الله على ذهابه، وأعود إلى حياتي التي كنت عليها.. وأقصه دائمًا على أهل بيتي.

ولكن... ماذا حدث هذه المرة، لماذا أنا ما زلت مكثفة الأيدي والأرجل واللسان؟! وأي شعور هذا الذي لم أشعر به من قبل؟! كأن شيئًا ما يعترض دخول الأكسجين، وكأن غصة بالحلقوم تحاول الخروج! ثم أين أنا؟ لست في منزلي ولا هذا بسريري.. أنا أرى كل شيء، عيناى مفتوحتان على آخرها، ولكن ثابتتان أرى كل شيء وأرى حلمًا جميلًا: من هذا القادم إليّ؟ يمد كفه نحو وجهي ولماذا يغطي لي عيناى؟! سمعت منه كلمة (البقاء لله)! وسمعت بعدها صراخًا كثيرًا، كل صرخة كانت تطعنني بشدة.



أرجوكم كفى، لا يستطيع اللسان التحدث.. أستحلفكم بالله
كفى.. أهو الموت حقًا، هو ليس بكابوس هذه المرة وأنا المتوفية،
أحقا قامت ساعتى! الحمد لله الذي أخرجني منها على خير. والحمد
لله أنني رأيت حلمًا جميلًا رأيت كل خير، إنها لبُشرى.

لقد كانت الحياة قصيرةً طويلةً، كانت قصيرةً لمجاورة الأحباب،
طويلة عن حلم جميل وعن دنيا الآخرة ونعيم خالد.

لمَّا بلغتُ عشرينَ عامًا، كنتُ دائمًا ما أقول لنفسي، كيف ود
أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة وهأنذا أشكو بقاء عقدين من الأعوام؟!
ما كنت أشكو البقاء بل كنت أشكو الصبر الطويل لترى عيناى
هذا الحلم الجميل.

الآن وهم يصيحون، لا أحتاج إلا لقلمي ومدونتي كالعادة في
المواقف غير المعتادة لأسْطَر وأكتب ما تمليه على نفس ميتة وروح
ذهبت، وإن كانت طعنات الصراخ تتحامل علىّ، تؤذيني كأمهات
قتلتُ أنا أبناءها الصغار.



أشعر بلمسات من الصائحين، إنها لمسات من الأحباب
والأصحاب والأهل.. ومن أمي، يا لحبيبتي.. لا تصيحي.. أنا بكل
خير، كم وددتُ أن تسمعيني ولكن لا محاولة.. أنا الآن متوفاة،
ولن أستيقظ مهما حاولت. يبدو أنني الآن في مقر التغليف،
وإحداهن تنادي: هيا لقد جاء الكرب (حامل الموتى)!

أمي تقبلني قبلات ما قبلها أهل الأرض لبعضهم أبدأ، وتودعني
وداعًا ما رآه التاريخ من قبل، وما زالت تصيح، ولم الصياح؟ أنا
سعيدة وأشعر باطمئنان القلب .

أنا فقط أخشى الوحدة يا أماه، أخشى أن أكون بمفردي
وأخشى الظلمة.. ظلمة القبر. كيف ستذهبون وتتركونني رفيقة
التراب، وصديقة الظلام، وأنيسة الوحدة؟!.. إن هم ذهبوا بعد أن
يواروني في التراب، ابقِ أنتِ بجاني حتى مطلع الفجر.





حتى أشهد النور، أعلم أن القبر دائماً ليله مظلمٌ ونهاره مُظلمٌ،
دنياه سيان، ولكن آخرته من عمل يختلف من إنسان لإنسان.. بين
الظلام الدامس والنور الساطع، أعلم يا أمي .

ولكن ما زلت أحب بقاءك معي حتى يشق النور ظلام الدنيا،
أنا لا أحب الظلام لا أحبه؛ بل أخشاه . لا تبك، سأرسل سلامك
للأحباب، وأنا أعلم أن لك تحت الأرض أحبباً كثيرين، لا تخافي
وحدتي؛ سأجالس الأحباب، سيأنسوني ويؤانسني أنا بهم. ثم إنني
بيد الله، أتخشين عليّ وأنا بيد الرحمن الرحيم، العزيز الكريم !

صوتٌ من هذه التي تصيح بحرقه، يبدو كصوت العمّة وصوت
قديم الأصدقاء، إني لافتقدكم كثيراً، يا حبذا لو تقدمتم قليلاً!
كنت أود تقبيلكم.. أعواماً ما رأيتمكم! وما للأرض صاحت مرة
واحدة، يبدو أنني على وشك النزول لمهد الآخرة! يا للصياح ويا
لكلمات الحب تلقئها النساء، ويا لكلمات العزة ويا للمدح فيّ،
صحيح؛ يعيش الفرد منّا ما يعيش .. فإن مات أحببناه!



وأنتم أيها الأعراب الذين لم أقابلكم يوماً، أهلاً بكم وطوبى
لكم، جئتم لتلبية نداء جنازة.. أما زلتم تبكون فراق الدنيا
وترثون أصحاب الفراق؟ أما زلتم متخيلين أن ترك الدنيا ذهاب
يستحق الرثاء؟ أحببتموني لمجرد ذهابي؟! لا.. أحبوا أنفسكم
وبعضكم أولى، أرى أن الميت محبوبٌ والموت لا.. وأن الباقي مكروه
والحياة لا!

لا تجعلوا الدنيا عُليا، هي دنيا مهما طال الزمان وما كانت
لتكون غير ذلك.. العلو هنا، العلو بعد دقائق في حفرة صغيرة.. قد
يكون علواً عن الدنيا، وقد يكون أكثر دناءة منها.

صحيح تذهب الدنيا هباءً في ثوان، وحقاً أن شهادة الثانوية
والجامعة والماجستير والدكتوراه كلها ستغدو هباءً منثوراً في أول
ليلة في القبر ويبقى درس الصف الأول الابتدائي :

مَنْ ربك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيك؟



أعلم أن لن تجمعوني بأقلامي، أو لن يُعيرني أحدكم قلمًا
وصحيفة فأكتب ما يجب أن يُكتب، أكتب ما لم يُقرأ، رسالة
للجميع.. أعلم أنه لن يحدث ولن يعيرني أحدٌ شيئًا في أكفاني لذا..
فهذه رسالة من ميت... قبل أن يموت!

مرت الأيام ومرت السنون، إلى أن جاء اليوم الذي نقول فيه
نحن - الموتى- الحمد لله الذي أخرجنا منها قبل نفخة الصور الأولى،
نفخة الصاعقة والتي تصعق كل متكبر في الأرض جبار، صيحة
واحدة رجعنا فيها إلى الدنيا على آخر ما كنا عليه فيها، الساجد رجع
ساجدًا، والسابّ رجع يسب، وأصبحنا نحن والأحياء سواء.

ثم كانت النفخة الثانية والتي معها نُسفت الجبال نسفًا،
واستحال ماء الأنهار إلى جمرات، وإذا بالسماء تمطر غازات..
وُدكت الأرض دكًا، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ووضعت كل ذات
حمل حملها، وأذهلت كل مرضعة عما أرضعت، الكل في فزع تبلغ له
القلوب الحناجر، فزع من صوت صيحة النفخ، ومن منظر الأرض
والسماء، ترى الناس سُكاري وما هم بسكاري.. إلى أن يموت جميع



من في الأرض، النبات والحيوان والإنسان مرة واحدة .. ثم يسأل
الله عز وجل ملك الموت قائلاً:

هل من أحد على قيد الحياة!

فيرد ملك الموت :

لا أحد يا رب إلا جبريل وإسرافيل وميكائيل وحملة العرش.
فيقول الله: فلتقبض روح جبريل.. وإسرافيل.. وميكائيل.. وحملة
العرش، فيفعل كما أمره الله. ثم يسأله الله مرة أخرى: مَنْ بقي فيها؟
فيرد ملك الموت: لا أحد إلا أنا. فيأمره الله بأن يموت، فيموت.

ثم يهتز الكون بكلمات الله، (لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمِ.. لَلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ) فيعود الكون على هيئته كما كان، كما كان شيئاً واحداً، وقد
كان ما زال يتمدد، كما قال الله «وإنا لموسعون».

وبعد أربعين، لا أحد يعلم أربعين ماذا، أهي أربعين يوماً أم
عاماً؟ تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ويأمرها الله بأن تمطر
فَتَنَّبَت كل نفس في الأرض الجديدة، والتي ما زال فيها عقب الذنب



لكل نفس (عقب الذنب، العظمة التي لا تُبيدها الأرض مهما حدث) ثم يُحيي الله ملائكته، ويأمرهم برد الروح لكل نفس ثم يُنفخ في الصور .

الجميع على أرض المحشر، فإذا بالسماء تُكشط ويتنزل عرش الرحمن، والجميع في ضجة وفزع بالغ، ثم يقول الله تعالى: اصمتوا.. فلا تسمع إلا همساً. وإذ بالله يقول: أتوا بجهنم.

فإذا بجهنم تأتي مزجرة، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك.. يجرونها، ويبدأ الحساب.. فتُحشر الوحوش وتُحاسب الحيوانات.. على لكمة أعطها القط للفأر.. وعلى جدال كان بين الأسد والنمر، ثم يصبحون تراباً، حينها يقول الكافر المنتظر حسابه: يا ليتني كنت كمثلهم، يا ليتها كانت القاضية، أي يا ليتني كنت ممن أنها حسابهم.

ثم يبدأ حساب بني آدم، ويبدأ المشهد كالأتي؛ يقول الله لأحدهم: اقرأ كتابك. ويذكركه بذنب كذا وكذا في الدنيا، فيتساقط



لحم وجهه خجلاً.. يعترف بأنه أخطأ وقلبه واجف وأن رحمة الله واسعة.. فينجو بأمر الله.

وأما آخر، يُنكر فتشهد عليه أيديه وأرجله ولسانه، فيقول المنكر الذنب لأعضائه: لمَ شهدتم علينا؟ لقد أنطقهم الله الذي أنطق كل شيء.. فلا ينجو.

وإذا بمشهد آخر من رجل تخرج منه أمعاؤه إلى خارج بطنه، وإذا به يلتف حولها، وتلتف حوله، فيقول الناس ما بالك يا فلان وأنت الداعية فلان؟ لقد كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر! فيرد عليهم، لقد كنت أنهاكم عن المنكر وآتيه، وآمركم بالمعروف ولا آتيه. ثم الحوض، ومن ثم الصراط، ومن ثم الخلود، خلود نعيم أو خلود سعير. أما قبل ..

فرسالةٌ من ميت قبل البعث.





ثم كن كالماء.. سهلاً لَيِّنًا؛ يَرَوِي وَيُجِي، يُطْفِئُ وَلَا يُشْعَلُ، يَرَوِي
عطش العباد، ويطفئ نار الحقد في الأجساد.

سلام نفسي

ليس كل ألم نفسي يحتاج طبيبًا نفسيًا، وليس كل خبر مخفي يحتاج صديقًا مقربًا.. في حين أنك بعيدٌ كل البعدِ عن رُوحك .

ليست المرأة فقط لتُشاهدي فيها نفسك، وتراقبي بها حركة السبابة والإبهام، وهما ملتفان حول إصبع الروح الجديد حتى لا يتعثر منك وضع أحمر الشفاه، فلا يميل يمينًا أو يسارًا، لأعلى أو لأسفل عن مساره المحدد، وليست فقط لعقد رابطة عنق جميلة؛ أهدتها إليك زوجتك المستقبلية.

المرأة.. التقطتها يداي هذه المرة لا لوضع أحمر شفاه، ولا لتكحيل أطراف العين.. ليس لإحدى هذه الأعمال الجليلة، بل كي أراني فيها.. فأحدت نفسي وجهًا لوجه، وعينًا لعين.. لومًا بلوم، ومدحًا بمدح، رأيتم حينها ماذا وجدت، وجدت أنني قد افتقدتني كثيرًا، كثيرًا كثيرًا.



تُرى، بماذا أبدأ حديثي مع النفس؟ أبكلماتٍ من السلام بعد بُعدٍ؟ أم بالأحضان نأخذ بعضها بعضًا! أم أدخل في الموضوع حالًا؟! لا بأس.. كان حديثي مع النفس كحديثي معكم، فما أنتم لي الآن إلا قلم وكراس، أو أنامل تلمس الشاشات فتُدوّن ما تُدوّن. نعم أعلم.. أعلم يقينًا أنه سيمر كل مُر، فقط آمن بأن الآمال تذهب وتجيء.. وأنت صاحبها، فأنتِ بها، ولن تجيء الآمال إلا بعد ذهابها كشعاع النور لا يأتي إلا ليشئت الظلام.. والنجاح لا يأتي إلا بعد فشل، ولولا الذهاب ما كانت العودة، ولولا الظلام ما عرفنا النور، ولولا الفشل لما حدث النجاح.. واجعل من طبيعتك شروقًا، شروقًا عليك حضوره، أو شروقًا أنت صانعه.. أنت بريقه،

بريق خليقة جعلها الله في أحسن صورة، وكرمها حق تكريم ثم أخبرها الله قائلاً :

لو لم تذنبني لأتيتُ بقوم غيرك يذنبون ثم يستغفرون.. فأغفر لهم.

وكان الله خلق الإنسان ليزنب.. ليزنب فيستغفر، ليكتتب
فيعود.. لتذهب آماله فتجيء.. فلتطمئن القلوب، ولتسكن
أصحابها هادئة متفائلة، تربط جأش الروح جارتها.. وبنفس
راضية تأخذ بيد أجسادها.

ولتضع في نفسها موضعًا يقول لسان حاله: لِمَ الخوفُ يا نفسى،
لِمَ القلق؟ وهل مع الله خوف؟! فمن مَنْ؟

لا شيء يستحق ذبذبة الروح هكذا، لا شيء يستحق الخوف
ولا القلق.. إلا شيئًا وحيدًا يستحق كل هذا وأجل.. هو ألا تكون
مع الله! فإن كنت فاطمئنين.. واستمر.. واضرب بكل شعور
متذبذب عرض الحائط، وإن لم تكن.. فكن! وبعد الكون، افعل
بالشعور ما فعله الكائن.

وإن شعرت بسوء نفسك يومًا ما فاعلم بحسنها، فإن السوء لا
يرى السوء، فالقلب المهجور لا يعرف أنه الأطلال، فإن أدرك أنس،
كما يدرك النورُ الظلام.



فإن شعرت فاسعد، وما هذا بكافٍ.. ارجع إلى رشدك، وانظر
مد الأبصار، و ر في نفسك السلام، ر فيها وابدأ بالإحسان إليها
أولاً.. وَمَنْ أَعْلَى مِنَ النَّفْسِ يُحْسِنُ إِلَيْهَا، أَلَيْسَتْ هِيَ الَّتِي قِيلَ فِيهَا
أَنْ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا بِيَدِنَهَا!؟

فالتبادلا الحديث بكل حب وأمان، تتناجيان أنت ونفسك لا
ثالث لكما، وبكل سلام أخبرها أنك بخير.. بكل خير ما دُمت
تشعر بالسوء! هلائتِ بالمرأة، وانظر إليها، وأخبر مَنْ بها ..

أنا بخير. وبعد ذلك ستحتاج مرآة أخرى، مرآة غير رائية ولا
مرئية. ستحتاج مرآة للقلوب؛ مرآة ستحدثك هذه المرة.. وتقول :

أي بني إن القوة الحقيقية تكمن في مراوغة النفس وعصيانها،
النفس البشرية تلك التي يُقال فيها المثل بأن «العين لا تحب الأعلى
منها».. إنها لعين النفس البشرية حقًا.. عين قابيل لهاييل يوم أن
كانت.



والقوة كل القوة تكمن في عصيان النفس عن رضا أو بغيره،
وملئها بحب الخير.. حب الغير وحب الخير للغير.. أحب لغيرك
فيُحب غيرك لك !

أحب يا بني.. وكن بقلب ينبض بالإحسان ويضخ نسمات
الابتسام، يرفرف على مَنْ حولك فيملاً الدنيا سلاماً ويملاً روحك
من قبل الدنيا.. كن كابن تيمية يملأ سجنه سلاماً بذاته وبروحه
وبفكره.

فيقول: ما يفعل أعدائي لي؟ إنَّ جنتي وبستاني في صدري.. إن
قتلي شهادة.. وسجني خلوة.. ونفسي سياحة. أي سلام هذا؟! وأي
جمال روح؟!!

سلام زاهد.. ويعلم أن ما كانت الدنيا جناناً.. ما كانت ولن
تكون وإلا ما أنزل الله إليها آدم، أفترك الجنان للجنان؟!!

يعلم ويتيقن، ثم يعود للسلام.. سلام يصنعه بذاته فيحيل دنياه
جنة ونعيماً. ثم كن كالماء.. سهلاً لتيّاً.. يروي ويُحيي، يُطفئ ولا



يُشعل، يروي عطش العباد، ويطفئ نار الحقد في الأجساد، كن
كالماء يأخذ لون ما يحوي وكأنها المشاركة الوجدانية بعينها.. وإن
استطعت فكن مثله يوم أن كان تحت سماء زرقاء صافية.. يوم أن
كان عمر الأرض يوماً واحداً..

كن مثله فقط.

ثم شيئاً آخر، ألا أخبرك بأربع تجعلك ملك زمانك :

-لا تقارن نفسك بالآخرين، لا تقارن، لا تقارن.

-وأحب لإخوتك ما تحب لنفسك، إيماناً منك بالعدل الإلهي.

فوالله والله والله.. سنبقى في الحضيض.. سنظل.. وسيزداد

الحضيض عمقاً، ما دام أحدنا لا يُحب لأخيه ما يجب لنفسه.

فالأثرة سم يحتاج دنيانا يقتل القلب كعادته فيقتل سائر الجسد.

هي سم لو أهداني قلبي كل وصف بذيء كي أهبها إيّاه لوهبتها

ولما أوفيتها حقاً!



بُنِيّ، أَحِبَّ لَهُمْ فَيُحِبُّوا لَكَ، حِينَهَا سَتَمَلِكُ الدُّنْيَا جِنَانًا. أَيُّ بَنِي
الْإِنْسَانِ، لَا تَخْرُجُونَ مِنْ دُنْيَا إِلَى أَسْفَلِهَا بَعْدَ أَنْ أَنْزَلْتُمُونَا إِلَيْهَا مِنْ
فَوْقِ الْجِنَانِ، بِحَقِّ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا تَفْعَلُوا! وَلَا تَجَادَلُوا الْأَقْدَارَ.. جَادَلُوا
الْأَحْدَاثَ جَدًّا خَفِيفًا، وَمِنْ ثَمَّ انْسَبُوهُ لِلْأَقْدَارِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْكُنُوا
وَاثْبَتُوا! لَا تَجَادَلُوا الْأَقْدَارَ.

ثُمَّ خَالَطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بِكُؤًا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ
عَشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ.

وَقَلَّ عِتَابُكَ.. فَإِنَّ الْبَقَاءَ قَلِيلٌ.. قَلَّ لَهُ، فَالْذَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ،
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَلِيلَةٌ.. فَعَلَامَ يَكْثُرُ عِتَابُنَا وَيَطُولُ؟.



خاتمة

ساعة أن ذهب قلبي يوماً، وطارت الألفاظ كنت أردد في حزن

شديد:

لست أدري لِمَ انقطع اللسان عن الحديث معك هكذا صاحبي
الأيمن! أَلست بقادرٍ على أن تغوص في أعماق النفس فتعود منها
بما كان.. أم أن النفس أغلقت عنك أبوابها؟! لربما ازدادت هي
عمقاً، فكانت يَدُك أيها الرصاصي الجاف أقصر من هذا العمق..
أقصر من أن تُطيلُها فتَجِيء بما تجيء.

كلّا.. فأنت لم تبرح جانبك من هذا الكراس منذ آخر سَمَرٍ
معك، ما زِلتَ على نفس الجانب بجوار ذات الكراس تحت نفس
السماء، ألم تشفق إلى الحديث معي، وإن لم... فأني أشفق وأشتاق...
أم أن النفس هامةٌ همود الدُّب في شتاه؟! أم أن النفس انتابتها
غيوم الشتاء الملبّدة!؟



إنها أمواج الحياة أَيْتُها الضُّحى، أمواج الحياة أَيْتها الفتاة. كلا..
إنه الشتاء ، لعلَّه وَعَسَاه! فيعود إِلَيَّ قلبي -يوما ما- إلى حيث كان..
تحت سمائه الصافية، وإن كانت ذات السماء.

ولقد ذهب الشتاء ولم يأت الخريف ولا صيفه، بل أتى الربيع
بقلمه وأفكاره. وكان هذا الكتاب فكرة من أفكار الربيع، فأتمنى لو
التمستم فيه نسيم ربيع الأجواء، وشمتم عبير الصفاء.. ولو أرحتم
به على نمارق مصفوفة، صفها قلم الربيع لا الشتاء.





فالحمد لله على كل حال..

والحمد لله على شعور فراغ فيه استعداد للموت، فراغ من كل فكرة

من كل علم، الحمد لله على كل حال وعلى أحسن حال.

اللَّهُمَّ اجعل هذا العمل كله صالحًا، ولوجهك خالصًا، ولا تجعل فيه

لأحد غيرك شيئًا.

فقد تم بحمده



المحتويات

الإسم	رقم الصفحة
❖ مقدمة	٧
• الفقر عيب	١١
• رسالة إلى بُنَيَّتِي	١٩
• عاهات وتقاليد	٢٩
• قبل أن تقع في الحب	٣٨
• الإسلام في المرأة	٥٣
• الصداقة	٦٨
• كنت أخشى عليه	٧٧
• العربة المريبة	٨٨
• عوالم أخرى	٩٥
• الله	١٠٨
• لماذا نمرض	١٢١
• آباؤ الأعمام	١٢٦
• الوقت	١٣٦
• الموت	١٤١
• سلام نفسي	١٥١





رقم الصفحة

الإسم

١٥٨	خاتمة	❖
١٦١	الفهرس	❖
١٦٣	تعريف بالكاتبة	❖





تعريف بالكاتبة

ضحى أحمد فراج، من محافظة الأقصر، مركز إسنا قرية
الدباية.. في الثالث والعشرين من عمرها.

كانت بداية اتجاهها للكتابة في سن السابعة عشر، أنهت
دراستها الثانوية عام ٢٠١٥م ومن ثم التحقت بكلية الطب
البشري، جامعة أسوان. انضمت للنادي الأدبي الثقافي التابع لكليتها
عام ٢٠١٩م.

dohaahmedfarrag@gmail.com

